

## الفصل الأول

### حياة الأعمى التطيلي ومضامين قصيدة المديح في شعره

أولا – حياة الشاعر :

- 1- عصر الشاعر .
- 2- حياته .
- 3- ديوانه .

ثانيا – موضوعات قصائده المدحية :

1- المديح السياسي

- أ- مديح الأمراء والحكام .
- ب- مديح القادة والفرسان .

2- المديح الاجتماعي .

- أ- مديح الأصدقاء .
- ب- مديح المرأة .
- ج- مديح أعيان المجتمع .

3- المديح الديني .

- أ- مديح القضاة .
- ب- مديح الفقهاء .

## أولاً- حياة الشاعر

## 1- عصر الشاعر :

تميزت الأوضاع السياسية في الأندلس قبيل عصر المرابطين بالتدهور والسوء، بسبب ما كانت تعانيه من التفكك السياسي تحت حكم ملوك الطوائف الذين انغمسوا في حياة اللهو والترف والملاذات. وأثقلوا كاهل رعاياهم بالمغارم والضرائب الفادحة « لحاجتهم إليها في سد ثغرات فتحوها على أنفسهم»<sup>(1)</sup>، أكبرها وأهمها تلك الجزية التي كانوا يدفعونها "لألفونسو السادس"، كسبا لسلمه ومودته وردءا لخطره وحفاظا على عروشهم .

وحرص ألفونسو السادس على استرداد الأندلس على نحو شامل وطرده المسلمين نهائيا، مستغلا حالة الضعف والانحلال التي يعاني منها المسلمون في ظل حكم أمراء الطوائف الذين تناسوا الخطر النصراني المحدق بهم من كل ناحية، وانشغلوا في حروب داخلية مع بعضهم البعض، فانتشرت الفتن وعمت الفوضى واختلّ النظام في البلاد، ما كان له أثره العميق على الأوضاع الاقتصادية في البلاد بصفة خاصة .

وكان سقوط طليطلة<sup>(2)</sup> في يد ألفونسو السادس فاتحة صفر سنة 478هـ، هو الدافع الأول الذي أدّى بالمعتمد بن عباد<sup>(3)</sup>، إلى طلب المعونة والمساعدة من المرابطين<sup>(4)</sup>، حيث

(1) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص : 39 .

(2) طليطلة : تمتاز عن باقي مدن الأندلس بموقعها المتميز؛ حيث تقع في وسط الأندلس، فهي عاصمة الثغر الأوسط، وتقع على قمة جبل مرتفع أعطاها حصانة طبيعية، ويحيط بها نهر تاجة، وخلفها توجد قنطرة محصنة، ينظر: محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، منشورات جامعة سبها، سبها، ليبيا، ط1، 2001، ص : 39 .

(3) المعتمد بن عباد : هو المعتمد على الله أبو القاسم محمد بن عباد، قال فيه ابن خاقان : "ملك قمع العدا، وجمع البأس والندا، وطلع على الدنيا بدر هدى، لم يتعطل يوم كفه ولا بنانه، وكانت أيامه مواسم، وثغور برّه بواسم، ولياليه كلها دررا ..."، ينظر : أبو نصر الفتح ابن خاقان، قلاند العقيان في محاسن الأعيان، قدم له ووضع فهارسه، محمد العناني، المكتبة العتيقة، (د.ط)، (د.ت)، ص : 04 .

(4) المرابطون : لقد اختلف المؤرخون حول أصل هذه التسمية، فهناك رواية صاحب كتاب روض القرطاس وبعض من جاء بعده من المؤرخين أمثال ابن خلدون والسلوي الناصري، وتتص على أن عبد الله بن ياسين بدأ دعوته في الصحراء بدعوة من أمير قبيلة جدالة وهو يحيى بن إبراهيم الجدالي. فذهب إلى ديارهم التي تلي ديار قبيلة لمتونة جنوبا وتجاور ساحل المحيط الأطلسي حتى مصب نهر السنغال، وهناك في إحدى جزر هذا البحر أو ذاك النهر، بنى عبد الله بن ياسين رابطته، ابتغاء العزلة والعبادة، وصحبه في هذا المكان زعيم جدالة وبعض رجالها، فلم تمر عليهم أيام حتى اجتمع له نحو ألف رجل سماهم المرابطين للزومهم رابطته .

وهناك فريق آخر من المؤرخين أمثال ابن عذارى، وصاحب الحلل الموشية، وصاحب كتاب مشاهير أعيان فاس، يرون أن هذا اللقب أطلقه عبد الله بن ياسين على قبيلة لمتونة عقب معركة عنيفة انتصرت فيها لمتونة على قبائل من البربر على غير دين الإسلام .

وواضح من هذه النصوص أن اسم المرابطين أطلق في بادئ الأمر على رجال قبيلة جدالة في الجنوب ثم أطلق بعد ذلك على رجال قبيلة لمتونة التي تقع في شمالها.

ينظر : أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ص : 272 .

أدركوا مدى فداحة الخطر المحيط بهم، وعدم قدرتهم على رده، والوقوف في وجهه<sup>(1)</sup>. والمرابطون الذين تبنا فكرة الجهاد ورفع راية الإسلام، لم يترددوا بقيادة أميرهم "يوسف بن تاشفين"<sup>(2)</sup> في تلبية النداء للذود عن دولة الإسلام في الأندلس، بعد أن خيم عليها شبح الانهيار والزوال، فأنقذهم من عدوهم الخارجي مرتين، الأولى<sup>(3)</sup> في سنة (479هـ، 1086م)، والثانية<sup>(4)</sup> في سنة (483هـ، 1090م)، وفي هذه المرة قضى على ملوك الطوائف، وضمّ الأندلس إلى ملكه، ونفّذ فيها دستور المرابطين القائم على تطبيق الشريعة الإسلامية<sup>(5)</sup>. وهكذا تمكن يوسف بن تاشفين من توحيد المغرب والأندلس، في دولة واحدة عاصمتها مراكش، وبدأ الغرب الإسلامي ينعم في عهده بالازدهار والأمان. ودخلت الأندلس عند الفتح المرابطي لها مرحلة جديدة في تاريخها الإسلامي، فقد تحولت إلى ولاية ضمن دولة عريضة واسعة يحكمها قوم من شمال إفريقيا، فيهم عنف الصحراء

- (1) كمال السيد أبو مصطفى، تاريخ الغرب الإسلامي وحضارته، مركز الإسكندرية للكتاب، الأزاريطة، مصر، ص : 264 .
- (2) يوسف بن تاشفين : وهو أبو يعقوب يوسف بن تاشفين، المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين؛ لأنه هو الذي وطد أركانها وأعطاهما كياناً دولياً ثابتاً، في بادئ الأمر حكم يوسف بن تاشفين دولة المرابطين كنائب لابن عمه الأمير أبي بكر بن عمر الذي فضل أن يغادر ملكه ويجاهد الوثنيين من أهل السودان الغربي، وبعد استشهاد هذا الزعيم المرابطي سنة (480هـ، 1087م) صار يوسف بن تاشفين هو الحاكم الشرعي لدولة المرابطين . ينظر : أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص : 305 .
- (3) موقعة الزلاقة : في منتصف ربيع الأول سنة (479 هـ) عبر يوسف بن تاشفين بجيوشه من مدينة سبتة مضيق جبل طارق ونزل الجزيرة الخضراء، وإقتداء بما فعله طارق بن زياد من قبل، قام يوسف بن تاشفين بتحصين الجزيرة الخضراء وما يتبعها من قواعد عسكرية أخرى على المضيق مثل جبل طارق وطريف، لتكون رأس جسر لهجومه وخطر رجعة لانسحابه، وهناك وافاه أكثر الأندلس أمثال المعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفضس وغيرهم، ثم زحفت جيوش المسلمين نحو اشبيلية ثم إلى بطليوس في غرب الأندلس بغية لقاء العدو، وحينما علم الملك ألفونسو السادس بأخبار هذا الغزو رفع الحصار عن سرقسطة، وأسرع بجيوشه نحو تجمعات المسلمين من المغاربة والأندلسيين . فالتقى بهم في الشمال من بطليوس عند فحص الزلاقة، وهناك دارت معركة فاصلة بين الفريقين في 12 رجب سنة 479هـ، ينظر : م.ن، ص : 308، 309 .
- (4) موقعة اقليش : هي من أهم المعارك التي شهدتها الأندلس وقعت سنة (483هـ)، وفيها حقق المرابطون نصراً عظيماً ونجاحاً ساحقاً، وتعد هذه الواقعة أكبر نصر للمرابطين بعد الزلاقة، حيث ثبتت أقدامهم وركزت وجودهم في المناطق الوسطى والشرقية في شبه الجزيرة، وفي إعلاء سمعتهم العسكرية والدفاعية . ينظر : محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين بالمغرب والأندلس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، ج1، 1964، ص : 439 .
- (5) عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص : 105 .

وخشونة مناخها ويبوسة رملها، فليس من السهل عليها وعلى شعبها أن يهضم الوضع الجديد ويتكيف معه، فإذا رحب الأندلسيون بيوسف ابن تاشفين أول الأمر، فإنهم سرعان ما انكمشوا عنه وقلّت حماساتهم لحكومتهم، ويبدو أن عوامل ذلك الفتور والتبرم تعود إلى أمور كثيرة،

منها ما هو سياسي ومنها ما هو فكري وثقافي، وبعضها اجتماعي، وهذه الأسباب متداخلة ومتلاحمة فيما بينها أدت إلى كره المرابطين والوقوف منهم موقفا صداميا بعض الأوقات<sup>(1)</sup>. ونظرا لتلك الخشونة والقسوة في سلوكهم وتصرفهم، وكونهم اعتادوا على حياة البداوة والتعصب في معتقداتهم، فلا يمكن أن تلين قناعتهم وتتكيف غلظتهم لمناخ الفكر المثقف في الأندلس خلال السنوات الأولى من اتصالهم بهم، لكنهم في الوقت ذاته، لم يكونوا من الشدة والقسوة والجهل بالدرجة التي صورهم بها بعض الدارسين، لاسيما المستشرقين<sup>(2)</sup>، فحكام المرابطين حاولوا أن يستفيدوا من العقلية الأندلسية، وأن ينقحوا أفكارهم وذهنيتهم بما تضمنه تلك العقلية من ثقافة ومعرفة، فاجتمع لهم في بلاطهم بمراكش من الكتاب وفرسان البلاغة وأقطاب العلوم ما لم يوجد مثله في عصر من العصور، « حتى أشبهت حضرتهم حضرة بني العباس في صدر دولتهم »<sup>(3)</sup>

ففي عصر المرابطين نشطت الحركة العلمية في شتى العلوم، وظهر أكابر العلماء في كل علم، ونالوا الرعاية من المرابطين، كذلك اعتنوا بالأدب وأهله عامة وأدباء الأندلس خاصة، « حتى لم يبق منهم أديب مرموق لم ينط به عمل في بلاط يوسف بن تاشفين بمراكش، أو ابنه علي، أو في ديوان أحد الأقاليم ... »<sup>(4)</sup>.

(1) محمد مجيد السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط1، 1985، ص : 43 .

(2) من بين هؤلاء المتحاملين على المرابطين المستشرق يوسف أشباح في كتابه تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ص 483 وما بعدها، تر: محمد عبد الله عنان، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1940 وكذلك مؤلفات دوزي ولاسيما كتابه الخاص بتاريخ ملوك بني عبّاد، وكذلك المؤرخ الأمريكي أرشيبالد لوليس في كتابه القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، ص : 362 .

على الرغم من الغموض التي اكتنف نشأة هذه الدولة المرابطية وندرة المصادر التاريخية التي سجلت تاريخها بوجه عام فإن هناك من الباحثون الذين حاولوا كتابة تاريخ منصف لهذه الدولة المجاهدة أمثال : حسين مؤنس، ومحمود مكي وحسن أحمد محمود، وأويثي ميراندا، وبوسك فيلا، وغيرهم كثير.

ينظر : أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص : 267، 268 .

(3) عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص : 108 .

(4) م. ن، ص : 109 .

واهتموا كذلك بالكتاب والبلغاء الأندلسيين للإعراب عن رغباتهم ومخاطباتهم<sup>(1)</sup>، مشجعين إياهم على الكتابة والتأليف، وكان لإبراهيم بن يوسف بن تاشفين دور كبير في تشجيع الكتاب والشعراء، فابن خفاجة يذكر في مقدمة ديوانه أنه انصرف منذ زمن عن نظم الشعر لولا الأمير إبراهيم الذي حثه على قوله ومعاناته<sup>(2)</sup>.

والشعراء الذين أدركوا عصر المرابطين هم الشعراء الذين كانوا في ظلال أمراء الطوائف، ونذكر من بينهم شاعر الطبيعة الأندلسي المعروف في عصر المرابطين إبراهيم ابن خفاجة الهواري الشقري (450هـ، 533هـ- 1057م، 1138م) الذي لقبه الناس بالجنان لكثرة وصفه للطبيعة، وكذلك الشاعر والفيلسوف ابن باجة<sup>(3)</sup>، ومنهم أيضا الأعمى التطيلي الذي سنخصه بالدراسة، حيث أشتهر في اشبيلية بشعره وموشحاته .

(1) محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، ج1، 1964، ص : 439 .

(2) ابن خفاجة، الديوان، تح : مصطفى غازي، مطبعة المعارف، الإسكندرية، 1960، ص : 7، 8 .

(3) ابن باجة : وهو أبو بكر محمد بن الصائغ المعروف بابن باجة الذي مدح أمير سرقسطة أبا بكر إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، وظل ابن باجة يعمل كاتباً ووزيراً له إلى أن توفي هذا الأمير، فانتقل ابن باجة إلى المغرب حيث توفي بفاس سنة 533هـ، 1139م، ينظر : أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص : 287 .

وإلى جانب هؤلاء الشعراء، نجد الأدباء الأندلسيين الذين خدموا في بلاط المرابطين منهم أبي القاسم بن الجد الفهري<sup>(1)</sup>، وأبو بكر محمد بن القبطرنة البطليوسي<sup>(2)</sup>، وابن أبي الخصال<sup>(3)</sup>، وابن خاقان<sup>(4)</sup> .

وإلى جانب ما تقدم عرف عصر المرابطين ظهور فن شعبي جديد في الأندلس خلال القرن السادس الهجري (12م) وانتشر في المغرب والمشرق؛ بل وفي أوربا أيضاً، ذلك هو فن

الأزجال، ويلاحظ أن هذا الفن هو تطور لفن الموشحة، بمعنى أن الزجل والموشح فن شعري واحد مع فارق أساسي هو أن الموشحة عربية أصيلة في لغتها ما عدا القفل أو الجزء الأخير منها وهو الخرجة أو المركز الذي يكون باللغة الأسبانية أو العامية الأندلسية، أما لغة الزجل كلها لغة عامية دارجة جارئة على السنة عامة الناس، وممثل هذا اللون من الشعر الشعبي أي الأزجال، هو ابن قرمان القرطبي<sup>(5)</sup>، ولقد لقي هذا الفن الشعبي إقبالا ورواجا في بلاد المغرب والمشرق .

- (1) أبو القاسم بن الجد الفهري : المعروف بالأحذب الذي كان من أعيان اشبيلية، ومقربا من العباديين، فلما خلعه المرابطون، استدعاه على بن يوسف بن تاشفين لتولي الكتابة في ديوان رسائله بمراكش وظلّ هناك حتى وفاته سنة (515هـ، 1121م)، ينظر : أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص : 286 .
- (2) أبو بكر محمد بن القبطرنة البطلبوسي : من كتاب المرابطين أيضا، كان وزيرا وكاتبا في بلاط بني الألفس ببطلبوس، فلما خلع المرابطون بني الألفس، كتب ابن القبطرنة لهم حتى توفي سنة (520هـ، 1126م) ينظر : م.ن، ص : 286 .
- (3) ابن أبي الخصال : محمد بن مسعود بن طيب بن فرج بن أبي الخصال خلسة الغافقي، أبو عبد الله، وزير أندلسي، شاعر، أديب، يلقب بذي الوزارتين، ولد بقرية (فرغليط) من قرى (شقورة) وسكن قرطبة وغرناطة، وأقام مدة بفاس وتفقه وتآدب حتى قيل لم ينطلق اسم كاتب بالأندلس على مثل ابن أبي الخصال، استشهد في فتنة المصامدة بقرطبة . ينظر : محمد موسي الوحش، موسوعة أعلام الشعر العربي، دار دجلة، عمان، 2008، ص : 148 .
- (4) ابن خاقان : وهو أبو نصر الفتح ابن خاقان، من أشهر الكتاب والأدباء في الأندلس وصاحب كتابي قلاند العقيان، ومطمح الأنفس، خدم ملوك الطوائف ثم خدم بعض أمراء المرابطين ولاسيما الأمير أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي أهدى إليه ابن خاقان كتابه القلائد، ومات قتيلا بفندق في مدينة مراكش سنة (529هـ، 1134م)، ينظر: أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص : 286 .
- (5) ابن قرمان : وهو الوزير الكاتب أبو بكر ابن قرمان، يقول فيه ابن خاقان : «مبرز في البيان، ومحرز الخصل عند تسابق الأعيان، اشتمل عليه المتوكل اشتمالا أرقاه إلى مجالس، وكساه ملابس، فاقتطع أسمى الرتب وتبوأها، ونال أسنى الحظوظ وما تملأها، فإن دهره كرّ عليه بخطوبه، وسفر له عن قطوبه، فكدر عيشه بعدما صفا وقلص برده الذي كان صفا ... وكان رحمه الله ظاهر الصواب متى نبس، طاهر الأثواب من كل دنس، معجزا ببنانه، موجزا في كل أحيانه، وقد أثبت له ما تعلم حقيقة قدره، وتعرف كيف أساء الزمان له بغيره» . ينظر : الفتح ابن خاقان، قلاند العقيان ومحاسن الأعيان، ص : 213 .

إذن، فما من شك أن الرعاية المعتبرة التي حظي بها أدباء الأندلس وشعراؤه من بعض أمراء المرابطين، قد أثرت في الأدب الأندلسي تأثيرا محسوسا، وخاصة في الشعر؛ حيث تميزت أساليبه بالقوة والفخامة والجزالة، وانتحى الشعراء في شعرهم مناحي الجد والتوقر كنتيجة لتشبعهم بروح الحفاظ الذي كان يسيطر على رجال الدولة، وارتفاع معنويات أهل الأندلس عامة، بما أتاهم الله من نصر على عدوهم بفضل المرابطين، لذا نجد الحركة العلمية والأدبية حافظت على تقدمها وازدهارها في أيامهم<sup>(1)</sup> .

(1) عبد العزيز عتيق، تاريخ الأدب العربي في الأندلس، ص : 109 .

## 2- التعريف بالشاعر :

هو أحمد بن عبد الله بن هريرة<sup>(1)</sup> أو (ابن أبي هريرة)<sup>(2)</sup> ينسب من حيث القبيلة إلى قيس<sup>(3)</sup>، وإلى البلد فيقال : التطيلي الإشبيلي، لأن تطيلة<sup>(4)</sup> موطن أهله واشبيلية دار هجرتهم، وقد وردت له في المصادر كنيّتان، وهما : أبو جعفر<sup>(5)</sup>، وأبو العباس<sup>(6)</sup>، وقيل أيضاً، أبو بكر<sup>(7)</sup> . كان ضريراً لذلك لُقّب بالأعمى التطيلي الإشبيلي القرطبي<sup>(8)</sup>، عاش في أواخر القرن الخامس الهجري وأوائل القرن السادس، ولقد كان يستعين في تنقلاته بشخص يعرف بأبي القاسم بن أبي طالب الحضرمي المنيشي<sup>(9)</sup>، والذي لُقّب بـ «عصا الأعمى»، لأنه كان يقود الأعمى التطيلي<sup>(10)</sup> .

وهناك تطيلي أعمى آخر يعرف بـ « أبي إسحاق إبراهيم بن محمد التطيلي الضرير، نشأ بقرطبة، وسكن اشبيلية، ويعرف بالتطيلي الأصغر »<sup>(11)</sup>، بينما شاعرنا يعرف بالتطيلي الأكبر، وكان الأعمى التطيلي من أكبر الأدباء في عصره؛ إذ وصفه ابن

- (1) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: سالم مصطفى البديوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص: 429 .
- (2) صلاح الدين بن أبيك الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، تح: أحمد زكي بك، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 2006، ص: 101 .
- (3) الصفدي، الوافي بالوفيات، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج7، 1982، ص: 226 .
- (4) تطيلة: مدينة بالأندلس تقع إلى الشرق من مدينة سرقسطة، ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط1، 1975، ص: 197 .
- (5) أبو عبد الله محمد بن حامد عبد الله بن علي المعروف بالعماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، تح: ذرتاش آذرنوش، نقحه وزاد عليه محمد المرزوقي، محمد العروسي، الجيلاني بن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر، تونس، ج3، 1989، ص: 511 .
- (6) أحمد بن يحيى بن عميرة الضبي، بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1989، ص: 234 .
- (7) ابن الأبار، المقتضب من كتاب تحفة القادم، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط3، 1986، ص: 80 .
- (8) الفتح ابن خاقان، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ص: 850 .
- (9) هو أبو القاسم بن أبي طالب الحضرمي المنيشي المعروف بعصا الأعمى وقال في وصفه ابن الإمام: أجد الأفراد، ورأس الجهاذة النقاد، ينظر: ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، ط4، ج1، 1993، ص: 289 .
- (10) م.ن، ص: 289.
- (11) ابن الأبار، تحفة القادم، أعاد بناءه وعلق عليه إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1986، ص: 39.

سعيد في (رايات المبرزين) بـ: « معري الأندلس، أبو العباس أحمد بن عبد الله التطيلي الأعمى، ينسب إليها ومنشؤه حمص، وهي اشبيلية، وهو من شعراء الذخيرة »<sup>(1)</sup> .

وجلّ المصادر التي تحدثت عن الأعمى التطيلي، كانت شحيحة في استقصاء أخباره، وتصوير حياته، فأخباره قليلة، وهي على قلتها لا تعطي صورة واضحة وعميقة لحياة هذا الشاعر الكبير، فهي لا تكاد تخرج عن الإعجاب بشعره وتوشيحته والوقوف على كوامن إبداعه وسرّ جماله، ومجملها أحكام انطباعيه عامة فقد قال فيه ابن بسام حين أثنى عليه وعلى أدبه: « له أدب بارع، ونظر في غامضه واسع، وفهم لا يجارى وذهن لا يبارى، ونظم كالسحر الحلال، ونثر كالماء الزلال، جاء في ذلك بالنادر المعجز، في الطويل منه والموجز، نظم أخبار الأمم في لبه القريض، (...) وكان بالأندلس سرّ الإحسان، وفردا في الزمان ... »<sup>(2)</sup> .

ووصفه العماد الأصفهاني (ت 597هـ) : « بالفهم الغائص، والذهن الدراك لخفيات الغوامض، والبصيرة بأسرار المعاني بعين الإطلاع، والفكرة المستخرجة من معادن الفؤاد، فرائد الجواهر بيد الاضطلاع ... » (3) .

وقال عنه الضبي : « أديب شاعر، محسن ما شاء بليغ » (4) .

وإلى جانب كون الأعمى التطيلي «أديبا فذا» وشاعرا عظيما فهو وشاح كبير، لدرجة أن بعض موشحاته وصفت بأنها مذهبة(5)، وذلك تشبيها لها بالمذهبات - المعلقات المشهورة - لحسن صياغتها وجودتها اللغوية وجمالها الفني(6) .

ولقد لمع صيته كوشاح كبير في أكثر من حادثة، ولعلّ أهمها تلك الحادثة التي جمعته مع عدد كبير من مشاهير وشاحي عصره ومن بينهم ابن بقي وقد روي أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس باشبيلية، وكان كل واحد منهم قد صنع موشحته، وتأنق فيها، فتقدم

- (1) ابن سعيد الأندلسي، رايات المبرزين وغايات المميزين، تح : نعمان عبد المتعال القاضي، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، 1973، ص : 124 .
- (2) ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص : 429، 430 .
- (3) العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، ص : 511 .
- (4) الضبي، بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس، ص : 234 .
- (5) لسان الدين ابن الخطيب، جيش التوشيح، تح : هلال ناجي، مطبعة المنار، تونس، (د.ت)، ص : 16 .
- (6) محمد عويد الطربولي، الأعمى التطيلي شاعر عصر المرابطين، دراسة موضوعية فنية، مكتبة الثقافة الدينية، طر، 2005، ص : 15 .

الأعمى التطيلي الإنشاد، فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله :

ضاحِكُ عَنْ جُمَانٍ      سَافِرٌ عَنْ بَدْرِ  
ضَاقَ عَنْهُ الزَّمَانُ      وَحَوَاهُ صَدْرِي

خرق ابن بقي موشحته، وتبعه الباقون، إعجابا وإكبارا(1) .

وتوشيحه لا يقل عن شعره إبداعا ومقدرة، بل لعلّ شهرته في نظم الموشحات فاقت شهرته في قول الشعر(2) .

وقد عرف الأعمى التطيلي بنثره أيضا، فقدراته الإبداعية لم تتوقف عند الشعر والموشح، بل تجاوزهما إلى النثر. وقد امتاز نثره بالعبارات القصيرة المسجوعة، مستخدما فيه جانبا كبيرا من ثقافته التي عرف بها في شعره، أما عن موضوع هذا النثر فأكثره في الإخوانيات لاسيما العتاب والشكوى(3) .

معظم المصادر التي ترجمت لحياة الأعمى التطيلي لم تصرح عن العام الذي ولد فيه . أما عن سنة وفاته فقد حددها الصفدي بقوله : « توفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة»<sup>(4)</sup> . والشائع أنه مات وهو شاباً، وصرّح ابن بسّام بقصر عمره حين قال : «... إلا أنه لم يطل زمانه، ولا امتد أوانه، واعتبط عندما به اغتبط، وأضحت نواظر الآداب لفقده رمدة ونفوس أهله متفجعة كمدّه...»<sup>(5)</sup> .

وقد اقترح الدكتور محمد عويد الطربولي في دراسة له، معتمداً على ما ورد في بعض المصادر لخبر وفاته، سنة ميلاده بسنة (485هـ)<sup>(6)</sup> .

- (1) أنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، تر: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت)، ص:144. (2) سليم الحلو، الموشحات الأندلسية نشأتها وتطورها، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط1، 1986، ص : 39 . (3) حازم عبد الله خضر، النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1981، ص : 190، 191 . (4) الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، ص : 101 . (5) ابن بسّام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص : 430 . (6) محمد عويد الطربولي، الأعمى التطيلي شاعر عصر المرابطين، دراسة فنية موضوعية، ص : 17 .

### 3- التعريف بالمدونة :

التطيلي شاعر من شعراء الأندلس البارزين، له ديوان شعر كبير نظم في الأغراض التقليدية للشعر، من مدح ورتاء وغزل ووصف وموشحات، وقد حقق ديوانه الدكتور إحسان عباس وصدّره بدراسة قيمة عالج فيها تاريخ الشاعر وشعره، فتعرض فيها إلى اسمه وكنيته ولقبه إلى جانب نسبه، كذلك تعرض إلى أهم أخباره وصور من حياته العائلية وقد قام إلى جانب هذا بإعطاء لمحة عن شعره وموشحاته .

ولقد اعتمد الدكتور إحسان عباس في نشر هذا الديوان – وذلك بحسب ما أورده في مقدمة ديوانه – على نسختين :

1- نسخة دار الكتب المصرية رقم 593 أدب، وقد رمز لها في الديوان بالحرف (د)، وهي أكمل النسختين من حيث عدد القصائد، ولكنها حديثة النسخ، ففي آخر ورقة من ورقاتها أن

الفراغ من نسخها تمّ يوم الثلاثاء المبارك لتسع خلت من جمادى الآخر سنة 1297، على يد الفقير الحقير المعترف بالذنب والتقصير (محمد أحمد)<sup>(1)</sup>.

2- نسخة المتحف البريطاني (ورقمها 6673، add)، ورمزها (م)، وفي آخر ورقة منها كتب - حسب قول إحسان عباس دائما - « تمّ الديوان الشريف بعون المستعان في سنة ثمانمائة من هجرة (النبي) »، فهي أقدم تاريخا من نسخة دار الكتب، وأجود ضبطا، ولكن سقطت منها أوراق في غير موضع ولم تحتو إلا على 41 قصيدة ومقطوعة غير مرتبة ترتيبا أبجديا<sup>(2)</sup>. وقد أضاف إحسان عباس إلى هذين النسختين ما وجده من مقطوعات متفرقة في المصادر المطبوعة والمخطوطة، ثم أضاف إلى هذا كله ما استطاع جمعه من موشحات التطيلي<sup>(3)</sup>. كما اعتمد على نسخة جيش التوشيح لصاحبها لسان الدين بن الخطيب بالإضافة إلى نسختي الخريدة ومسالك الأبصار<sup>(4)</sup>.

(1) إحسان عباس، مقدمة ديوان الأعمى التطيلي، ص ظ.

(2) م.ن، ص ظ.

(3) م.ن، ص غ.

(4) م.ن، ص غ.

وقد احتوى ديوانه على ثلاث آلاف واثنين وخمسين بيتا شعريا، تتوزع بين قصائد ومقطوعات\*، أما عدد القصائد فهو تسع وستون قصيدة، وأما المقطوعات فعددها تسع عشرة مقطوعة، أما الموشحات فقد بلغت اثنين وعشرين موشحة في الديوان. وقد توزعت الأغراض والموضوعات في الديوان كما يلي:

الغرض	المقطوعات	القصائد
-------	-----------	---------

42	4	المديح
4	5	الغزل
09	1	الثناء
01	2	الوصف
-	1	الشكوى
01	-	الهجاء
01	-	الفخر
المستدرک علی الديوان		
01	-	المديح
-	04	الغزل
-	02	الوصف
-	02	التهنئة
22 موشحة		الموشحات

(\*) اعتمدت في التفريق بين المقطوعات والقصائد على ما أورده ابن رشيق في كتابه العمدة، إذ يرى أنه " إذ بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة " وبالتالي ما يقل عن سبع فهي مقطوعة، ينظر: ابن رشيق، العمدة، ص: 170.

شعر الأعمى التطيلي يعكس ما أحدثه عصر المرابطين من أثر في الشاعر الأندلسي وفي شعره، فهو - بحق - مرآة عاكسة للحياة الأدبية في ذلك العهد، حتى أنه كان في أحيان كثيرة يثور ضد الواقع القاسي الذي كان الأندلسيون يحيونه في ظل المرابطين، فالأندلسيون ضاقوا ذرعا - في الكثير من الأحيان - بحكم المرابطين لتسليطهم الفقهاء على الناس، ولتضييقهم لحريتهم التي تعودوا عليها، فقد فشا الظلم وساد الفساد، كما يقول التطيلي في معرض تحريضه أهل اشبيلية على رجل ظالم<sup>(1)</sup> :

فَشَا الظُّمُّ وَاغْتَرَّ أَشْيَاعُهُ      وَلَا مُسْتَعَاثُ وَلَا مُشْتَكِي

## وَسَادَ الظُّغَامُ بِتَمْوِيهِمْ وَهَلْ يَفْدَحُ الرِّزْءُ إِلَّا كَذَا

ولقد توزع ديوان الأعمى التطيلي بين مختلف الأغراض من مدح ورتاء وغزل وغيرها، وسنحاول أن نعرضها فيما يلي :

### - المديح :

يحتلّ هذا الغرض الصدارة في ديوان شاعرنا، فمديحه كثير اتخذته وسيلة للتكسب وللاتصال بخاصة وسادة المجتمع، ولاسيما الفقهاء والقضاة منهم، وفي مدحه جزالة وإندفاق وقوة جعلته من أوائل المدّاحين في عصر المرابطين، وكان مدح التطيلي دائما يهدف إلى استمالة واسترضاء الممدوح، وفيه أحيانا شكوى وحكاية حال<sup>(2)</sup> كل ذلك في سبيل التكسب الذي شاع في ذلك العهد شيوعا كبيرا أدّى بإحسان عباس إلى القول : « يومئذ اشتدت الصلة بين الشعر والتكسب، واستوى الشاعر والوشاح والزجال في هذا، فكانوا جميعا يمدحون الفقيه أو القاضي أو صاحب الأحباس أو صاحب المدينة، وغايتهم من ذلك تتضاءل حتى لا تعدو الحصول على غفارة أو ثوب أو خروف - كما يبدو من أزجال ابن قزمان - بل قد يكون الممدوح غلاما عيارا<sup>(3)</sup> جميلا يمزج الشاعر أو الوشاح أو الزجال بين مدحه له وتغزله فيه »<sup>(4)</sup>.

- (1) الأعمى التطيلي، الديوان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1993، ص : 1 .
- (2) حنا الفاخوري، الموجز في الأدب العربي وتاريخه (الأدب في الأندلس والمغرب، أدب الانحطاط)، دار الجيل، بيروت، ط1، مج3، 1991، ص253 .
- (3) عيارا : رجل عيار : كثير المجيء والذهاب في الأرض، وحكي الفراء، رجل عيار : إذا كان كثير التطواف والحركة ذكيا، وفرس عيار وعيال، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة عير .
- (4) إحسان عباس، مقدمة ديوان الأعمى التطيلي، ص : ص .

### - الغزل :

يعد الغزل من أقدم الفنون الشعرية عند العرب وأكثرها انتشارا، لاتصاله بفطرة الإنسان وطبيعته، وحياته الاجتماعية<sup>(1)</sup>، وقد كان كل شيء في بيئته الأندلس الجميلة يغري بالحب ويدعو إلى الغزل والتعبير عن كل ما قد يختلج في النفس من مشاعر رقيقة صادقة، فانقادت بهذا القلوب نحو عواطفها، فأحبت وتغزلت<sup>(2)</sup>، ومن هنا كان الغزل أكثر الأغراض الشعرية شيوعا في الأدب الأندلسي « فلا يخفى على أحد ولع الأندلسيين بهذا الغرض؛ لأنه يتماشى وجمال الطبيعة وما كانوا يتمتعون به من حياة ناعمة مترفة وما كان منتشرا عبر بلادهم من

أماكن اللهو والمجون والخمر، مع رغبة شديدة في التعبير عن هذه الحياة الجديدة بكل مظاهرها ...» (3).

ولقد كان لشعراء الأندلس اتجاهان بالنسبة للتجربة الغزلية، « اتجاه من اتخذوا الغزل طريقا إلى اللهو والمتعة، واتجاه من تغزلوا تعبدا بالجمال، واتخذوا من العفاف حائلا يحول بينهم وبين الغواية» (4)، ولقد طرق شاعرنا الأعمى التطيلي الاتجاهين معا، إلا أنّ شعره الغزلي قد جاء أغلبه عذريا « وهذا ليس ناتجا عن عفة لأنه تغزل بالغلما، بل هو ناتج عن عاهة كف البصر التي أنضبت صورته البصرية في هذا الجانب، ف جاء أغلب غزله روحيا عاطفيا غير متكشف» (5).

وقد قال يصف ليالي عاشها مع محبوبته (6).

هَلْ تَذَكِّرِينَ لِيَالِيَا بِنْتًا بِهَا لَا أَنْتَ بَاخِلَةٌ وَلَا أَنَا أَمْنَعُ  
أُنْتِي عَلَيَّ وَ كُلُّ أَصْفَرٍ مُرْهَفٍ لِهَوَاكِ يَغْنُو أَوْ لِحَمْدِكَ يَضْرَعُ

- (1) محمد مصطفى هداره، اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، مصر، ط2، 1969، ص: 500 . (2)  
عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص: 169 .  
(3) محمد بن منوفي، دراسة تحليلية في شعر ابن سهل الأندلسي، دار هومة، الجزائر، 2002، ص: 78، 79 .  
(4) عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص: 170 .  
(5) محمد عويد الطربولي، الأعمى التطيلي شاعر عصر المرابطين دراسة موضوعية فنية، ص: 56 .  
(6) الديوان، ص: 78 .

وقال مصورا أشواق المحب ولواعجه (1).

هُوَ الْهَوَى وَقَدِيمًا كُنْتُ أَحْذَرُهُ السُّقْمُ مَوْرِدُهُ، وَالْمَوْتُ مَصْدَرُهُ  
يَا لَوْعَةً هِيَ أَحْلَى مِنْ مَنَى أَمَلٍ الْآنَ أَعْرِفُ شَيْئًا كُنْتُ أَنْكَرُهُ

والتفت الأعمى التطيلي إلى الجمال الغلماي ورأى « فيه مكملًا لحالات الغزل الحسية التي لم يستطع التصريح عنها بجميع جوانبها من جهة، وإرضاء لنزعة الكيف في الجnoch إلى الأعمال التي تعرب عن تفوقه الجنسي، وبروزه فيها، وأسوة بالشاعر المبصر من جهة أخرى» (2)، فقال يتغزل بأحد الغلمان (3):

سُكْرِي اللَّمَى وَضِيءُ الْمُحْيَا يَسْتَخْفُ النَّفُوسَ قَبْلَ الْجُسُومِ

## مُتَهَدِّ إِلَى الْحُلُومِ بِلِحْظٍ رُبَّمَا كَانَ ضَلَّةً لِـلِحُلُومِ

- الرثاء :

رثاء الأعمى التطيلي يأتي بعد المديح في ديوانه، وهو يتبع فيه عدّة أساليب، أحيانا يعدّد أوصاف الفقيد ويذكر هول الفاجعة وما أحدثه في النفوس من ألم وحسرة وحزن، وأحيانا أخرى يلجأ إلى النظرات التأملية في زوال الدنيا ومن عليها، وقد يعمد إلى استعراض تلك الحقائق المصيرية التي جعلت من الإنسان ألعوبة في يد الأقدار<sup>(4)</sup>، واتسعت مراثي الأعمى التطيلي وكثرت في النساء؛ إذ نجدها قد احتلت مساحة واسعة من مراثي الشاعر، وتدور معظم أبيات تلك المراثي حول التصبر لرحيل المرثية، والتنويه بفضائلها التي لا تقل - في معظم الأحيان - عن فضائل الرجل ومفاخره .

وكانت أشهر قصائده في رثاء النساء تلك التي رثى بها زوجته، وتعد من أجمل وأروع مرثيات الأندلسيين في أزواجهم، وأهم نماذجه<sup>(5)</sup> .

(1) الديوان، ص : 240 .

(2) محمد عويد الطربولي، الأعمى التطيلي شاعر عصر المرابطين دراسة موضوعية فنية، ص : 57 .

(3) الديوان، ص : 165 .

(4) حنا الفاخوري، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، ص : 253 .

(5) بدير حميد متولي، قضايا أندلسية، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1965، ص : 322 .

وهو يبدو فيها شديد الحزن والتفجع والحسرة على فقدان زوجته، وتكمن أهمية هذه القصيدة في كونها حلقة في سلسلة الشعر الأندلسي الرقيق الذي يتناول رثاء الزوجات<sup>(1)</sup>؛ إذ يقول في رثائها<sup>(2)</sup> .

وَنَبَّئْتُ ذَاكَ الْوَجْهَ غَيْرَهُ الْبَلَى      عَلَى قُرْبِ عَهْدِ بِالطَّلَاقَةِ وَالْبِشْرِ

بَكَيْتُ عَلَيْهِ بِالْذُّمُوعِ وَلَوْ أَبْتُ      بَكَيْتُ عَلَيْهِ بِالتَّجْدِ وَالصَّبْرِ

أَمْ مَخْبِرَتِي كَيْفَ اسْتَقَرَّتْ بِكَ النَّوَى      عَلَى أَنْ عِنْدِي مَا يَزِيدُ عَلَى الْخَبْرِ

- الوصف :

لقد كان الوصف عند العرب أكبر فنون الشعر، ذلك لأنه يأتي في أكثر أغراض الشعر ممتزجا بها، « وقلّ أن نجد قصيدة بنيت على موضوع الوصف وحده، اللهم إلا في القطع

القصار»<sup>(3)</sup>، فابن رشيق يرى أنّ «الشعر إلا أقله راجع إلى الوصف»<sup>(4)</sup>.

وقد أبدع الأندلسيون ما شاء الإبداع في الوصف، فوصفوا الأبنية والتماثيل والقصور والبرك والنوافير والنواعير والحدائق والمروج والأودية والأديرة والأنهار والأشجار والرياح ومجالس الطرب<sup>(5)</sup>.

ولقد جاء شعر الوصف عند الأعمى التطيلي قليلا، وهذا ليس بالغريب «لأن العمى قد ترك أثره على هذا الجانب عنده»<sup>(6)</sup>، فحدّد لديه من مجال الوصف الذي هو بطبيعة الحال قائم على حاسة الرؤية، ولهذا فإننا لو تتبعنا ديوانه لا نجد سوى قصيدة واحدة جاءت في وصف المطر، قال فيها<sup>(7)</sup>:

طَلَبْتُ غِرَّةَ الزَّمَانِ الْجَمَادِ<sup>(8)</sup>      نَعَمَ حُبُّ الرَّبِيِّ وَرَيُّْ الْوَهَادِ  
وَأَصَاخَتْ إِلَى الْجَنُوبِ تَقْصَى      أَثَرَ الْجَدْبِ فِي أَقَاصِي الْبِلَادِ

(1) إحسان عباس، مقدمة ديوان الأعمى التطيلي، ص 5.

(2) الديوان، ص: 70.

(3) عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص: 284.

(4) ابن رشيق، العمدة، ج2، ص: 294.

(5) أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، طر، 2004، ص: 229.

(6) علي الغريب محمد الشناوي، الصورة الشعرية عند الأعمى التطيلي، مكتبة الثقافة الدينية، طر، 2003، ص: 52.

(7) الديوان، ص: 37.

(8) الجماد: الذي لا مطر فيه، وطلبت غرته: وافته على غرّة، يعني تلك السحاب الماطرة والحب أوله الري، ينظر:

ابن منظور، لسان العرب، مادة، جمد.

وإنّ الدارس المتفحص لشعر الأعمى التطيلي يلحظ أنه باستثناء هذه القصيدة تتداخل الطبيعة بكل مظاهرها مع الأغراض الشعرية الأخرى، فالأندلسيون يجمعون في شعر الطبيعة شعر الغزل والخمر والمدح والعتاب والفخر والرثاء وغير ذلك من الأغراض بإحكام ولباقة ...<sup>(1)</sup>

ويعتبر الغزل من أهم الأغراض التي تمازجت مع شعر الطبيعة عند الأعمى التطيلي وهذا يتجلى في قوله<sup>(2)</sup>:

هُوَ الْغَزَالَةُ فِي إِشْرَاقِ غُرَّتِهِ      وَابْنُ الْغَزَالَةِ لَحْظًا زَانَهُ الْحَوْرُ  
أَتَى بِهِ الدَّهْرُ فَرْدًا فِي مَحَاسِنِهِ      فَقُلُّ كَثِيبٍ، وَقُلُّ غُصْنٍ، وَقُلُّ قَمْرُ

كذلك وصف الرمح<sup>(3)</sup> والخيل<sup>(4)</sup>، والليل<sup>(5)</sup> والسفينة<sup>(6)</sup>، ووقف عند الخمر، فوصفها

وصورها وعكس من خلالها مظاهر المجتمع الأندلسي، حيث أقبل الناس على الحياة اللاهية

يطلبونها حيثما وجدوها، وكان همّ الشاعر عندهم أن يصف من الطبيعة ما يزيده نشوة وحباً، لذلك عمدوا إلى ذكر الخمرة والتغني بها في أحضان الطبيعة<sup>(7)</sup>، ولقد رسم التطيلي هذه المعاني في لوحة جميلة من خلال مميته المشهورة والتي مطلعها<sup>(8)</sup> :

أَصْبَحِينَا بِاللَّهِ أُمَّ حَكِيمٍ      هَذِهِ أَخْرِيَاتُ زَهْرِ النَّجُومِ

- (1) محمد كامل الفقي، في الأدب الأندلسي، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 1975، ص : 92 .  
 (2) الديوان، ص : 67 .  
 (3) م.ن، ص : 114، 150 .  
 (4) م.ن، ص : 57، 58، 151، 196، 200 .  
 (5) م.ن، ص : 184 .  
 (6) م.ن، ص : 198 .  
 (7) محمد بن منوفي، دراسة تحليلية في شعر ابن سهل الأندلسي، ص : 199 .  
 (8) الديوان، ص : 164 .

#### - الشكوى \* :

وقد تجلّى هذا الغرض وبرز في شكواه التي كانت نابغة من عاهته وغربتة، والمعيشة المتواضعة التي قضاها في اشبيلية، فالشكوى جاءت في ثنايا قصائده المدحية، التي استعطف فيها ممدوحيه، وشكا لهم حاله وأحواله وغدر الزمان وقسوة الأيام، فقد عاش معظم حياته يرتزق بشعره ويطلب من ممدوحيه العطاء، ففي مدحه ابن زهر جاءت شكواه صريحة، لاسيما وأنه رأى في شخصية ممدوحه برّاً وكرماً، حين قال<sup>(1)</sup> :

لَعَلَّكَ تُصْغِي يَا ابْنَ زُهْرٍ عَلَى النَّوَى      فَاقْدَ أَنْ يَفْضِي سَاهِمُ الْوَجْهِ نَاجِلُهُ  
 عَلِيلٌ رَأَى الشُّكْوَى إِلَيْكَ شِفَاءَهُ      وَأَيَقِنَنَّ أَنَّ الْكُتْمَ لَا شَكَّ قَاتِلُهُ  
 بَقِيَّةَ دَهْرٍ طَالَمَا عَبَّثَتْ بِهِ      يَدُ السَّقَمِ حَتَّى لَيْسَ يُمَثَلُ مَائِلُهُ  
 رَأَى الْبُرِّءَ فِي كَفِّكَ مِلءَ جُفُونِهِ      وَقَدْ رَجَفَتْ أَشْجَانُهُ وَبَلَابِلُهُ

- التهنة :

من الأغراض التي تطرق لها الأعمى التطيلي في أشعاره، فالعيد عنده أهمية خاصة ومناسبة سارة وسعيدة، يقدم فيها الشاعر تهانيه ومشاعره الصادقة، لشخصية بارزة هي شخصية الهوزني<sup>(2)</sup>، حيث يقول<sup>(3)</sup> :

تَشَوَّفَ الْعِيدُ مِنْ جَدْوَى يَدَيْكَ إِلَى عَيْنِدِ عَلَى النَّاسِ وَالْأَيَّامِ مُشْتَمِلٌ  
فَاهُنَّا بَعِيدٌ لَهَا الْأَفْرَادُ فِيهِ إِذَا لَمْ يَهْتَأُوا غَيْرَ عَقْرِ الضَّانِ وَالْإِبِلِ  
وَلَا يَزَلُ يَتَصَدَّى فِي ذُرَاكَ إِلَى عِنَاقِ مَا شَاءَ مِنْ أَنْسٍ وَمِنْ جَدَلِ

- \* في دراسة لمحمد عويد الطربولي بعنوان الأعمى التطيلي شاعر عصر المرابطين حاول جمع كل من الشكوى والتهنئة تحت لون واحد من الشعر وهو شعر الإخوانيات معتبرا أن شعر الإخوانيات يتناول أوجه العلاقات الاجتماعية بين الشاعر وبين شخصيات ذلك المجتمع لكنني حاولت الفصل بين هذين الغرضين عند الشاعر واعتبرتتهما غرضين مختلفين من الشعر مثلهما مثل المديح أو الغزل أو الهجاء أو غير ذلك .
- (1) محمد عويد الطربولي، الأعمى التطيلي شاعر عصر المرابطين دراسة موضوعية فنية، ص : 74 .  
(2) الديوان، ص : 236 .  
(3) الهوزني : وهو الحسن بن عمر بن الحسن الهوزني من أهل اشبيلية، يكنى أبا القاسم، كان فقيها، مشاورا ببلده، عاليا في روايته، ذاكرا للأخبار والحكايات حسن الإيراد لها، توفي سنة (512هـ). الضبي، بغية الملمس في تاريخ رجال الأندلس، ص : 226 .

#### - الهجاء :

وقد سار فيه شاعرنا على نحو ما عرف وورد في الشعر العربي، فأبلغ الهجاء « ما خرج مخرج التهزل والتهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قربت معانيه وسهل حفظه، وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس ... »<sup>(1)</sup>، ولقد قال يهجو ابن منظور<sup>(2)</sup>، قاضي اشبيلية<sup>(3)</sup> :

مَنْ مَبْلُغٌ عَنِي الْفَتِيَانِ مَأْكَاةٌ<sup>(4)</sup> وَلَسْتُ أَنْطِقُ عَنْ إِفْكِ وَلَا خَطَلِ  
إِنِّي تَرَكْتُ ابْنَ مَنْظُورٍ لَوَارِدِهِ لَمَعُ السَّرَابِ، وَدَاعِيهِ ابْنَةُ الْجَبَلِ  
فَلَسْتُ أَحْنُو بِمِرَاهُ عَلَى صَنَمٍ وَلَا أُعْرَجُ مِنْ مَعْنَاهُ فِي طَلَلِ

#### - الفخر :

وهو في حقيقة الأمر « المدح نفسه، إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه، وكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار، وكل ما قبح فيه قبح في الافتخار »<sup>(5)</sup> .

وقد جاء الافتخار عند الأعمى التطيلي في قصيدة واحدة، يفتخر فيها بعفته ويشيد بفضائله، من أنه شاعر أبي سمح وفي، في وقت تغيرت فيه هذه الفضائل، وتبدلت هذه المعاني الراقية، يقول (6) :

وَأَتَّبِعُ عَقْلِي مَا وَفَى بِحَرَامَتِي      وَبَعْضُ عُقُولِ النَّاسِ أَجْنَحَةُ النَّمْلِ  
وَأَعْلَمُ أَنِّي رَهْنُ يَوْمِي أَوْ غَدِي      وَلَكِنْ رَأَيْتُ الْعَجْزَ أَرَى بِمَنْ قَبْلِي  
أَبِيُّ إِذَا كَانَ الْإِبَاءُ سَجِيَّةً      مِنْ التَّرْكِ لِلنُّقْصَانِ وَالْأَخْذِ بِالْفَضْلِ  
وَسَمْحٌ وَلَوْ أَنَّ السَّمَاخَ ذَرِيعَةً      إِلَى الْمَوْتِ لَا حَتَّى أَقُولُ إِلَى الْقَتْلِ  
وَفِيٍّ وَقَدْ ضَاعَ الْوَفَاءُ وَأَهْلُهُ      مَصَانَعَةٌ بَيْنَ الْغَوَايَةِ وَالْجَهْلِ

- (1) ابن رشيق، العمدة، ص : 189 .  
(2) ابن منظور : أحمد بن محمد بن أحمد بن عيسى بن منظور القيسي، من أهل اشبيلية وقاضياها، يكنى أبا القاسم، روي عن أبيه وسمع من ابن عم أبيه عبد الله محمد بن أحمد بن منظور، واستقضى ببلده مدة، ثم صرف عن القضاء، توفي سنة عشرين وخمسائة ومولده سنة ست وثلاثين وأربعمائة، ينظر : ابن بشكوال، الصلة في تاريخ علماء الأندلس، تح : صلاح الدين الهوارى، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، مج1، 2003، ص : 79 .  
(3) الديوان، ص : 139 .  
(4) مألوك : الألوک : الرسالة وهي المألوك، ابن منظور، لسان العرب، المادة : ألك .  
(5) ابن رشيق، العمدة، ص : 162 .  
(6) الديوان، ص : 145 .

« ولا شكّ فإنّ الشّاعر أجاد الفخر بنفسه بعد مضيعة وغربة، ولذا ف (أنا) الشّاعر واضحة لتعبّر عمّا يلاقيه من شكوى، وما يرتبط بها من فخر بنفسه واعتداده بعلمه في الوقت نفسه» (1)

#### - الحكمة :

قد وردت أيضا في شعره، وهي « تمثل جانبا هاما من التراث الثقافي في كل أمة، فهي تنطق بتجارب الإنسان وتعكس قيم المجتمع في أوجز لفظ وأبلغ معنى » (2) .  
وتأتي الحكمة مستمدة من تجاربه الخاصة التي مرّ بها في حياته، وهي مبنوثة في قصائده وأشعاره ومنها قوله (3) :

أَمَّا الزَّمَانُ فَلَا أَشْكُو وَلَا أَدْرُ      لَا يَصْنَعُ الدَّهْرُ مَالًا يَصْنَعُ الْقَدْرُ  
لَوْ أَنَّ حَظِّي مِنْ دُنْيَايَ أُمْنَحُهُ      جَاءَتْ إِلَيَّ اللَّيَالِي وَهِيَ تَعْتَدِرُ

#### - الموشحات :

كان للأندلس فضل الريادة والسبق، في ابتكار نوعين من فنون الشعر وهما :

الموشح والزجل، ويرتكز التجديد في الشعر الأندلسي، ويحصر بالموشحات، فهي بحق أول محاولة تجديدية في الشعر العربي على الإطلاق<sup>(4)</sup>.

« وقد ولدت الموشحات في أحضان الطبيعة الأندلسية المترفة وتخلقت أنغامها في بيئة المغنين والمغنيات، ووجدت رواجاً كبيراً في أوساط الأمراء والحكام، وكانت في حقيقتها تعبيراً عن شخصية الأندلس الفنية واستقلالها الأدبي كما كانت انعكاساً لما شاع في البيئة الأندلسية من ترف وتحضر<sup>(5)</sup> .

والموشحات هي نظم تكون فيه القوافي اثنتين اثنتين كما هو الحال في الوشاح، وهو العقد يكون في سلكين من اللآلئ كل منها لون<sup>(6)</sup> .

- (1) محمد عويد الطربولي، الأعمى التطيلي شاعر عصر المرابطين، دراسة موضوعية فنية، ص : 87 .
- (2) محمد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات، منشورات الجامعة التونسية، 1981، ص : 331 .
- (3) الديوان، ص : 63 .
- (4) ميشال عاصي، الشعر والبيئة في الأندلس، ص : 102 .
- (5) فوزي سعد عيسى، الموشحات والأزجال الأندلسية في عصر الموحدين، دار المعرفة الجامعية، 1990، ص : 11 .
- (6) أنخل جنثالث بالنتيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص : 143 .

وشاعرنا التطيلي هو من أكبر وشّاحي الأندلس شهرة وأبرزهم إتقاناً في نظم الموشحات، « فقد كان التطيلي من أربابها المجّلين<sup>(1)</sup>، وهو في موشحاته يمثل عصر المرابطين، فقد شهد هذا العصر انصراف عدد من الشعراء إلى نظم الموشح ومنهم : ابن بقي المتوفى سنة (540هـ)، والأعمى التطيلي و«قد دخل الموشح معهما عصره الذهبي<sup>(2)</sup>» .

أما عن موشحات الأعمى التطيلي فقد بلغت في ديوانه اثنتين وعشرين موشحة<sup>(3)</sup> .  
وجملة موشحاته « في المديح والغزل وأكثرها نجاح وذو شهرة واسعة لما فيها من تنوع ومن غنى موسيقي وتعبيري<sup>(4)</sup>» .

وفي إحدى موشحاته المدحية، جاءت مقدمة تتضمن معاني الهجر والصدّ، وحرقة الدموع، ومن ثمّ عرّج إلى وصف محبوبه، قبل الانصراف إلى الممدوح وعرض فضائله، يقول في هذه المقدمة<sup>(5)</sup> :

صَبْرَتْ وَالصَّبْرُ شِيْمَةُ العَانِي      وَلمَ أَقْلٌ لِمُطِيلِ هِجْرَانِي      أَلَيْسَ كَفَانِي  
هَلْ كَانَ عَيْرِي يَعْتَرُّ بِالدِّلَّة      عَشِقْتُهُ يَنْتَمِي إِلَي الحِلَّة  
مَلَالَةَ النَّاسِ عِنْدَهُ مَلَّة      لَمْ يَحْصِرِ الشَّعْرُ وَصْفَهُ كَلَّة

## فِي كُلِّ يَوْمٍ أَرَاهُ فِي شَانٍ أَمَاتِنِي هَجْرَهُ وَأَحْيَانِي بِأَشْنَبِ سَقَانِي

هذه هي الأغراض الشعرية التي طغت في ديوان الأعمى التطيلي، وبرزت بشكل واضح، وإن كان المديح قد غلب عليها جميعها، وقد يكون تفسير ذلك ذا علاقة بنفسية الشاعر، كون الأعمى التطيلي كان يسعى إلى التكسب بشعره، تلجئه إلى ذلك عاهته، التي جعلته ضعيفا، منهكا، لا يقوى على تأمين رزقه، إلا من خلال استعطاف ممدوحه وشكايته حاله .

- (1) حنا الفخوري، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، ص : 253 .
- (2) ميشال عاصي، الشعر والبيئة في الأندلس، ص : 109 .
- (3) يرى الدكتور محمد عويد الطربولي أن للأعمى التطيلي سبع وعشرون موشحة، ينظر : محمد عويد الطربولي، الأعمى التطيلي شاعر عصر المرابطين دراسة موضوعية فنية، ص : 92 .
- (4) حنا الفخوري، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، ص : 254 .
- (5) الديوان، ص : 269 .

### ثانيا- موضوعات قصائده المدحية

#### 1- المديح السياسي :

كان عصر المرابطين مسرحا لأحداث سياسية كثيرة، فقد أنشأ المرابطون دولة قوية في المغرب شعارها أو طابعها الخاص هو الزهد والتقشف ودستورها هو العمل على إصلاح الفساد، ونشر الفضائل الدينية وتطبيق الشريعة الإسلامية<sup>(1)</sup>.

وبسطوا قبضتهم على إفريقية والمغرب والأندلس، وبذلوا جهودا مضنية للدفاع عن تلك المملكة المترامية الأطراف، فحاضوا حروب جهاد ضارية ضدّ النصارى، ولم يكن الشعر الأندلسي بمعزل عن هذه الأحداث، بل عاش معها وغدا ظلّ لها، وعبر عنها في كل صورة من صورها، فمثّل الدولة المرابطية في صراعها مع الأعداء، وواكبها في انتصاراتها وفتوحاتها واحتفالاتها .

وأدت السياسة دورا كبيرا في توجيه قصيدة المديح في عصر المرابطين، كون شعر المديح « من دون فنون الشعر العربي الأخرى، مرتبطا على مدى التاريخ الأدبي بالسياسة والحكام، وذوي الجاه والنفوذ »<sup>(2)</sup>، فلقد عمل الشعراء على اتخاذ البيئة التي احتكوا بها وعاشوا في كنفها مادة خصبة ينهلون منها معانيهم وأفكارهم، وبيئة شاعرنا التطيلي قامت على « أسس دينية، وعلى يد فقيه وداعية »<sup>(3)</sup>، وهذا من دون شك أثر في اتجاه بعض الشعراء نحو مدح

الملوك والأمراء والقادة الفرسان في الدولة المرابطية، محاولين بذلك كسبهم ودفعهم إلى العطاء والبذل، رغم ما عرف به أولئك الأمراء من زهد وتقشف وانشغالهم بأمور دولتهم، وهناك من رد تحول الحكام المرابطين عن الشعر إلى ما يرويه الشقندي من « أن يوسف بن تاشفين – مثلاً – كان لا يفهم الشعر العربي ويستعين لفهمه ب مترجم »<sup>(4)</sup> .

ولكن شاعرنا التطيلي حاول كسر كل تلك الحواجز فمدح بعض الأمراء المرابطين، وقام

- (1) عبد العزيز عتيق ، الأدب العربي في الأندلس ، ص 105 .
- (2) محمد مجيد السعيد، الشعر في عصر المرابطين والموحدين بالأندلس ، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط2، 1985، ص : 79 .
- (3) أصل المرابطين فرقة سياسية دينية أسسها في بلاد السنغال، زعيم من مسلمي البربر هو يحيى بن إبراهيم الجذالي مستعينا بالفقيه الصوفي المغربي عبد الله بن ياسين الجزولي وذلك في منتصف القرن الحادي عشر ميلادي، ينظر : ميشال عاصي، الشعر والبيئة في الأندلس، ص : 33 .
- ينظر : محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في الأندلس، ص : 26 .
- (4) المقرئ، نوح الطيب في غصن الأندلسي الرطيب، ص : 191 .

بتصوير الخصائص التي اتسموا بها، وجعل منها صفات ثورية حربية لازمتهم طوال مدة حكمهم في الأندلس والمغرب؛ فلقد أعجب شاعرنا بالشجاعة الفائقة واقتحام الأهوال، والرأي السديد والخلق الحميد والعفو عند المقدرة والسماحة، كما أعجب بها غيره من شعراء الأمم الأخرى، لذلك راح يثني على الرجال المتفوقين والشجعان المشهورين والقواد العظام<sup>(1)</sup> .

#### أ- مديح الحكام والأمراء :

ومن المعلوم أن الجهاد ضد اسبانيا النصرانية في عصر المرابطين قد ترك أثراً كبيراً في نتاج الأندلس الفكري والأدبي، فراح الأعمى التطيلي يصور معاني الشجاعة في ممدوحيه وأبرزهم الأمير علي بن يوسف بن تاشفين<sup>(2)</sup>، زعيم المرابطين وقائد حملاتهم، وسيف انتصاراتهم، مدحه في ثلاث قصائد من ديوانه، يرى في ممدوحه علي، ما يراه في القائد الأنموذج الذي يحتذى به في كل سبيل، ويعاهد على كل أمر فيفي، فهو ظل يستظل به شاعرنا الكفيف الذي تقلبت به الظروف بين حزن وفرح، أمان وخوف، فيقول في قصيدته الأولى والتي يبدأ مطلعها بإيضاح طرق المهتدين والضلال<sup>(3)</sup> :

بَيْنَ سُمْرِ الْقَنَا<sup>(4)</sup> وَبَيْضِ النِّصَالِ<sup>(5)</sup> طُرُقُ الْمُهْتَدِينَ وَالضَّلَالِ

ومن ثم يعرج على ذكر المقاتلين من أبناء جيشه، ونجد أن هذه الصفات « تجمع بين الشجاعة والأمانة واقتحام غمرات الأوجال والآجال بين حنايا السيوف، حيث يستقر بذلك نظام الملك (...) إنهم سيوف الأبطال تنطق بما فعلت في الهامات والذوائب، فتصدأ صفحات السيوف من دم القتلى الكثيرين وهي ما زالت في أول عهدا بالصقل والمسح ... »<sup>(6)</sup>، فهو

- (1) عباس الجراري، تطور الأدب الأندلسي في عهد المرابطين، مجلة المناهل، ع16، 1979، ص : 42 .  
 (2) علي بن يوسف بن تاشفين وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين، وسمى أصحابه المرابطين، فجرى على سنن أبيه في إثارة الجهاد، وإخافة العدو وحماية البلاد، وكان حسن السيرة، جيد الطوية، نزيه النفس، بعيدا عن الظلم، كان إلى أن يعد من الزهاد والمتبتلين، أقرب منه إلى أن يعدّ من الملوك والمتغلبين، واشتدّ إثارة لأهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء .  
 ينظر : المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرح : صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2006، ص : 130 .  
 (3) الديوان، ص : 100 .  
 (4) القنا : مصدر الأقتنى من الأنوف والجمع قنو : وهو ارتفاع في أعلى الأنف وإحديداب في وسطه وسبوغ في طرفه، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة قنا .  
 (5) النصال : النصل، السهم، ونصل السيف والسكين والرمح، والجمع أنصل ونصال، ينظر : م.ن، مادة نصل .  
 (6) حسن الطرييق، المرابطون بالأندلس من خلال ديوان الأعمى التطيلي، مجلة المناهل، المغرب، ع11، 1978، ص : 374 .

دائما يحاول إبراز قوة وشجاعة ممدوحه من خلال وصف جيشه العظيم الذي ما ينفك يفتك بأعدائه واحدا تلو الآخر حتى يزداد قوة وعزيمة لتحقيق النصر، إذ يقول :

فَأَلَى الْأَمْنِ وَالْأَمَانَةِ أَوْ فِي غَمَرَاتِ الْأَوْجَالِ وَالْأَجَالِ  
 وَمَعَ السَّعْدِ وَالسَّعَادَةِ أَوْ بِيَدِ نِ حَنَائِبِ السُّيُوفِ وَالْأَعْلَالِ  
 أَصْبَحَ الْمُلْكُ فِي ضَمَانِ عَلِيٍّ أَمِنَ السُّرْبِ (1)، ضَافِي السَّرْبَالِ (2)  
 فِي ضِلَالِ الْقَنَا وَقَدْ زَالَتِ الْهُضْدُ بُ بِمَا فَوْقَهَا زَوَالَ الضَّلَالِ  
 وَسُيُوفِ الْأَبْطَالِ تَرَعْدُ مِمَّا فَعَلْتِ فِي جَمَاجِمِ الْأَبْطَالِ

ثم يجسد الأعمى التطيلي صورة الهلع والخوف في هذه القصيدة، حيث يملأ اسم الممدوح قلوبهم رعبا، وتنهار معنويات الأعداء من وراء الحصون ويلذون بالفرار على حال من الجبن والذعر (3)، فيقول (4) :

لَهْجُوا مِنْ عَلَاءِ شَأْنِكَ بِاسْمِ سَوْفَ يَجْرِي لَهُمْ بِأَبْرَحِ فَالِ  
 يَوْمَ يَعْشَى دِيَارَهُمْ قَبْلَ كِ الرُّعْبُ عَلَى نَحْوَةِ بِهَا وَاخْتِيَالِ  
 تُقْبَلُ الْوَهْدُ (5) فِيهِ بِالْحَفَرَاتِ (6) الْبِيَدِ ضِ وَالْهُضْبِ بِالْعَتَاقِ (7) الْمَتَالِي (8)  
 وَرَاءَ الْخُصُونِ قَلُّ (9) مِنَ الْقَوِ مِ عِيَالُ عَلَى بَقَايَا الْعِيَالِ

وهكذا يسترسل الشاعر في عرض هذه الصفات التي تزيد ممدوحه رفعة وجلالا، فقد عرف بقدرته الفائقة على قيادة الحروب وإدارة المعارك، ويشيد بصفات الشجاعة والبطولة، وهي صفات الآباء والأجداد :

- (1) السرب : يقال فلان آمن السرب لا يغزى ماله ونعمه لعزه، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة سرب .
- (2) السربال : القميص والدرع، وقيل كل ما لبس فهو سربال، ينظر : م.ن، مادة سربل .
- (3) منجد مصطفى بهجت، الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1986، ص : 310 .
- (4) الديوان، ص : 103 .
- (5) الوهد : يكون اسم للحفرة والجمع أوهد، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة وهد .
- (6) الخفرات : الأعراض، ينظر : م.ن، مادة خفر .
- (7) العتاق : العتق خلاف الرق وهو الحرية وكذلك العتاق، ينظر : م.ن، مادة : عتق .
- (8) المتالي : يقول للجدي إذا فطم وتبع أمه تلو، والأنتى تلو، والأمهات حينئذ المتالي، ينظر : م.ن، مادة تول .
- (9) قل : المنهزمين، ينظر : م.ن، مادة قلل .

يَا قَرِيْعَ (1) الْإِيَّامِ عَنْ كُلِّ مَجْدٍ ۖ يَا سَلِيلَ الْأَدْوَاءِ وَالْأَقْبَالِ (2)  
لَكَ مِنْ تَاشِفِيْنَ أَوْ مِنْ أَبِي يَعٍ ۖ قُوبٌ (3) ذِكْرَى مَكَارِمٍ ۖ وَفِعَالٍ  
نَسَبٌ زَادَ رَفْعَةً ۖ وَجَلَالًا ۖ فِي كُلِّ رَفْعَةٍ ۖ وَجَلَالٍ

وفي القصيدة الثانية جاءت بدايتها مججلة لتكون أقرب إلى الحماسة فقد كثرت الحروب إبان عصر المرابطين، فسجلت الملاحم البطولية التي كانت منبعاً للحماسة المتوهجة والشجاعة الفائقة؛ إذ يقول الأعمى التطيلي واصفاً علي بن يوسف بن تاشفين وجيشه (4) .

طَلِيْعَةُ جَيْشِكَ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۖ وَظِلُّ لَوَائِكَ الْفَتْحُ الْمُبِينُ  
وَهَزَّةُ رُمْحِكَ ۖ الظَّفَرُ الْمُوَاتِي ۖ وَرَوْنُقُ سَيْفِكَ الْحَقُّ الْيَقِينُ  
وَبَعْضُ رِضَاكَ لِلْأَجَالِ دُنْيَا ۖ وَشُكْرُ نَدَاكَ لِلْأَمَالِ دِينُ

ويركز الشاعر في هذه القصيدة على تصوير شجاعة الممدوح « فلقد عشق مسلمو الأندلس الشجاعة ولم يأت إقدامهم من كونهم أمة أحببت الاعتداء والشر، لا بل لكونها أمة أحببت الخير والسلام وسعت إلى تثبيت كيائها من خلال مواجهتها للأعداء » (5)، وشجاعة علي بن يوسف انعكست على جيشه إذ هو جيش قوي عظيم، يعمل جاهداً مع قائده  
- الممدوح - للدفاع عن سرقسطة في عصره (6) فيقول :

وَتِلْكَ النَّارُ تَصْلَاهَا الْأَمَانِي ۖ إِذَا شَبَّتْ، وَتَعْبِرُهَا الْمُنُونُ  
سَلِ الْأَدْفُونُشَ أَيْنَ الْحَرْبُ مِنْهُ ۖ وَرُبَّمَا أَجَابَ الْمُسْتَعِينُ (7)  
أَعْدُ لَهَا الْخُصُونُ مُشِيدَاتٍ ۖ وَمَا تُغْنِي الْمَعَاقِلُ وَالْخُصُونُ

- (1) قريع : السيد، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة قرع .
- (2) الأقبال : الأوائل، ينظر : م.ن، مادة قبل .
- (3) أبي يعقوب : كنية يوسف بن تاشفين والد الممدوح .

- (4) الديوان، ص : 200 .  
 (5) سلمى سلمان علي، القيم الخلقية في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط، 2007، ص : 150 .  
 (6) سرقسطة، ضربت الجيوش النصرانية المتحدة من الأرجونيين والفرنج الحصار على مدينة سرقسطة، ودافع عنها المرابطون سنة 512هـ، ينظر : محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين بالأندلس، ص : 92 .  
 (7) المستعين : هو أحمد بن المؤمن، من بني هود أمراء سرقسطة، رابع ملوك الدولة اليهودية في الأندلس، قتل شهيدا في معركه للدفاع عن سرقسطة ضد الإفرنج بقيادة ألفونسو السادس، ينظر: المقري، نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ص : 208 .

ويسترسل شاعرنا في عرض أفعال ممدوحه، ويعرض لنا خبر حصاره لطليطلة « فلقد ضرب المرابطون الحصار عليها سنة (503هـ)، واستمر بضعة أيام، بذل المرابطون فيها جهودا عظيمة، وتكبدوا خسائر جسيمة، واضطروا إلى رفع الحصار بعد اشتباكهم مع القوات النصرانية»<sup>(1)</sup>، وكان علي بن يوسف بن تاشفين القائد الجسور الشجاع الذي تخضع له الجيوش، فيقول الأعمى التطيلي :

وَكَيْفَ رَأَتْ طُلَيْطَلَةَ الْعَوَالِي      بِحَيْثُ تُغِيثُ بِأَسْمِكَ أَوْ تُعِينُ  
 نَسَفَتْ جِبَالَهَا بِجِبَالِ مَوْتٍ ٍ      تَدُورُ بِهَا رَحَى الْحَرْبِ الطَّحُونُ  
 سَيَشْكُرُ سَيْفُكَ الْإِسْلَامَ عَنْهَا      وَإِنْ أَبَتِ الْغَلَاصِمُ<sup>(2)</sup> وَالشُّنُونُ  
 وَلَمْ أَرَّ قَبْلَهَا شَجِيًّا بِشَيْءٍ      لَهُ فِي إِثْرِ مُشْجِيهِ حَيْنُ

وقد مزج الشاعر بين فعل الممدوح وبين التراث الإسلامي إذ شبه حصار علي بن يوسف بن تاشفين لطليطلة بحصار النبي (صلى الله عليه وسلم) للطائف<sup>(3)</sup>، فقد رجع المسلمون عنها دون فتح، ومثل ذلك فعل الممدوح بطليطلة فلقد حاصرها ثم غادرها دون أن يستولي عليها، إذ يقول<sup>(4)</sup> :

وَأَسْوَأُكَ الرَّسُولُ وَإِنْ يَشْكُوا      فَعِنْدَ جُهَيْنَةَ الْخَبْرِ الْيَقِينُ  
 نَثَاهَا<sup>(5)</sup> عَنْ تَقِيفِ الْعَوَالِي      بِهِمْ لَجِبٌ وَدُونَهُمْ رَيْنُ  
 فَوَافَاهُ بِهِمْ ظَمًا<sup>(6)</sup> وَخَوْفٌ      وَمِقْدَارٌ أَتَى بِهِمْ وَحِينُ

(1) محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين بالأندلس، ص : 68، 69 .  
 (2) الغلاصم : وهو الموضع الناتئ في الحلق، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة غلصم .  
 (3) لقد أقام النبي (ص) نصف شهر يقاتل تقيفا مع أصحابه، وتقيف تقائلهم من وراء الحصن، لم يخرج إليه في ذلك أحد منهم، وأسلم من حولهم الناس كلهم، وجاءت رسول الله (ص) وفودهم، ثم رجع النبي (ص) عنها دون فتح .

ينظر : إبراهيم منصور محمد الياسين، استيحاء التراث في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، عالم الكتب الحديث، أربد، عمان، ط1، 2006، ص : 180 .

(4) الديوان، ص : 204 .

(5) ثناها : يقصد هنا الخيل، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، ص : 204 .

(6) ظماً : ليس في كتب السيرة ما يوضح حقيقة هذا الظماً، وأما الخوف فإنهم رأوا الناس قد أسلموا فقالوا : لا طاقة لنا بهذا الرجل وعزموا على إرسال وفد إلى الرسول، ينظر : الديوان، ص : 204 .

إذا فقد جمع الأعمى التطيلي بين ناحيتين في المدح : « الأولى : عظمة الإيمان والتمسك بالدين الإسلامي، وهو ما عرف عن المرابطين وحركتهم الدينية، والأخرى القوة العسكرية التي اشتهر بها علي بن يوسف »<sup>(1)</sup>، وقد يعتبر هذا من أهم الميزات التي أضفت على شعر التطيلي نوعاً من الصدق العاطفي فيقينه بأن الإسلام هو الذي وراء قوة الممدوح وشجاعته جعلنا نتوقع ولو للحظة أن شاعرنا لا يرتجي بمدحه هذا مكسباً مادياً أو عطاءً، إنما كان مدحه موجه لشخصية علي كونه معجبا به وبقوته وبسالته.

أما القصيدة الأخيرة في مدح علي بن يوسف، فقد ركزت على جوده وسخائه « فالجود من الفضائل الإسلامية التي تمتع بها أمراء المسلمين، الذين تمسكوا بالخشية من رب العالمين »<sup>(2)</sup>، ولكن قبل أن يعدد الشاعر صفات الكرم والجود التي تمتع بها ممدوحه، راح يصف شجاعته وبسالته وشدة بأسه يوم الخطوب فيقول<sup>(3)</sup> :

أَهَابُ بِكَ الزَّمَانُ إِمَامَ عَدْلٍ      فَلَبَّتْهُ بِكَ الْحَرْبُ الزَّبُونُ<sup>(4)</sup>

إِذَا حَدَّثَتْ فِي الْهَيْجَاءِ عَنْهُ      فَإِنَّ حَدِيثَهُ فِيهَا شُجُونٌ

إلى أن يقول<sup>(5)</sup> :

فَذِ اهْتَزَّتْ بِأَنْعَمِكَ اللَّيَالِي      كَمَا تَهْتَزُّ بِالثَّمْرِ الْغُصُونُ

أَدْرَتْ عَلَى الْبَسِيطَةِ كَأْسَ طِيبٍ      تَعَاظَتْهُ السُّهُولَ وَالْحَزُونُ

فَكُلُّ قَرَارَةٍ مَسْكٌ فَتِيقٌ<sup>(6)</sup>      وَكُلُّ مُنِيفَةٍ<sup>(7)</sup> عِلْقٌ تَمِينٌ

ونجد أن هذه القصائد قد احتوت فضائل الممدوح، والقيم السامية التي تمتع بها هذا الحاكم، وهذه القيم انعكست بطبيعة الحال على سياسته في حكمه، فغاية المديح « أن يكون مدرسة أخلاقية يتخرج فيها الناشئة على الشجاعة والكرم والإباء والأنفة وحب المجد، والطموح إلى المعالي، والعدل والحلم والمروءة وغير ذلك مما يصح أن يمتدح به

(1) محمد عويد الطربولي، الأعمى التطيلي دراسة موضوعية فنية، ص : 27 .

(2) سلمى سلمان علي، القيم الخلقية في الشعر الأندلسي، ص : 230 .

(3) الديوان، ص : 208 .

- (4) الزبون : حرب تزبن الناس أي تصدمهم وتدفعهم، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة زبن .  
 (5) الديوان، ص : 209 .  
 (6) فتيق : يقال فتق الطيب يفتق فتقا، طيبه وخلطه بعود، والفتق الشق، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة فتق .  
 (7) منيفة : امرأة منيفة ونياف تامة الطول والحسن، ينظر : م.ن، مادة نيف .

العظماء من رجالات القوم»<sup>(1)</sup>؛ لأن هذه المعاني تنمي الذوق وتقوي العقل وتهذب التفكير وتشيع مكارم الأخلاق بين الرعية وتعزز روابط المحبة والإخلاص، وهذه من الجماليات الأخلاقية التي حاول الأعمى التطيلي بثها وخلعها على ممدوحيه، حتى يتفطن لها الناس وتشيع بينهم، ورغم ما نلاحظه دائما من غاية التطيلي التكبسية المادية إلا أن هذا لا يمنعنا أحيانا من لمس صدق العاطفة والإحساس في قصائده المدحية .

ومن ممدوحية أيضا الأمير أبو يحيى<sup>(2)</sup>، وقد وردت في مدحه قصيدتان تمجدان فضائله وترفعان من محامده، القصيدة الأولى تدور حول معاني الشجاعة، فيصف سيف الممدوح، كونه مظهرا من مظاهر الشجاعة لماله من كبير أثر في الفتك بالأعداء والظعن بهم فيقول<sup>(3)</sup>

إِنَّ سَيْفَكَ لَا يُثْنِي جِهَاتَهُ      حَتَّى يُبَيِّنَ لِلْجُهَّالِ مَا جَهَلُوا  
 نَارَ تَسْوُقِ الْعِدَا مِنْ حَيْثَمَا حُشِرُوا      إِلَى الثَّرَى، وَهُوَ مَاوَاهُمْ إِذَا قُتِلُوا  
 هِنْدِيَّةٌ لَمْ يَزَلْ بِالْهِنْدِ مُغْتَرِبٌ      يَدْعُو بِهَا كُلَّمَا شَبَّتْ وَيَبْتَهَلُ

ثم ينتقل إلى وصف رمح الممدوح، وما يلحقه بالأعداء من فتك وقتل فيقول<sup>(4)</sup> :

وَإِنَّ رُمْحَكَ لَا يُثْنِي مَعَاطِفُهُ      إِلَّا أَنْتَى الْقِرْنُ لَا يَأُلُ وَلَا يَيْلُ  
 حُلُو الْمَجَسَّةِ (5) لَا عِبْلٌ (6) وَلَا قُضْفٌ (7)      قَصْدُ الْمَهْرَةِ لَا كَزٌّ (8) وَلَا خَطْلٌ (9)  
 مُسْتَحْصِدُ الْمَتَنِ إِمَّا هَزَّهُ عَجَبًا      يَمِيلُ صَرَفَ الرَّدَى فِيهِ وَيَعْتَدِلُ  
 تَرَاهِي بِهِ الطَّعْنَةُ النَّجْلَاءُ يَطْعُنُهَا      كَأَنَّ مَا اسْتَعْمَنْتَهَا الْأَعْيُنُ النَّجْلُ

ويسترسل في وصف قيادته للأبطال وبسالته ونجدته في الحروب خاصة إذا اشتد غمار المعركة، فلقد دفعته هذه « الشيم والفضائل إلى اقتحام الأهوال وخوض المعارك بدهاء وبراعة، وازنا الفضائل في ميزان الإسلام لتحقيق آمال وطموحات المجتمع تارة، واستنهاض

- (1) أحمد أبو حاققة، فن المديح وتطوره في الأدب العربي، ص : 28 .  
 (2) الأمير أبو يحيى : لا نعرف عن هذه الكنية سوى أن الأمير أبو بكر أخو علي بن يوسف كان له ابن يدعى يحيى وتذكر المصادر أن يحيى كان على خلاف مع عمه علي .  
 ينظر : محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين بالأندلس، ص : 59 .  
 (3) الديوان، 113 .  
 (4) م.ن، ص : 114 .  
 (5) المجسة : الموضع الذي تقع عليه اليد عند الجس أو اللمس، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة جسس .  
 (6) عبل : الضخم من كل شيء، ينظر : م.ن، مادة عبل .  
 (7) قصف : الدقيق العظم القليل اللحم، ينظر : م.ن، مادة قصف .

- (8) كز : الذي لا ينبسط وجهه، كز صلب شديد، ينظر : م.ن، مادة كز .  
(9) خطل : خفة وسرعة، ينظر : م.ن، مادة خطل .

الهمم وتحقيق الأماني الذاتية تارة أخرى «<sup>(1)</sup>، وبهذا حاول الشاعر الارتقاء بممدوحه إلى درجات الكمال والمثال؛ إذ أعطى الأعمى التطيلي من خلال مدحه لأبي يحي صورة واضحة لاشتداد الوطيس واصفا الجيش ومؤمنا بنصرة القيم مع الحفاظ على روح الشجاعة والإقدام، بعد ركوبه الأهوال كل مركب وتشجمه صعاب الأمور لدرجة أن انتصاره قد كان أكيدا، كون المنجمين قد تنبأوا به، وشعاعه قد اتقد من خلال برجى الثور والحمل، فيقول<sup>(2)</sup>

قَادَ الْجِيَادَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَرَابِطِهَا      مَاضٍ إِذَا عَرَّدَ<sup>(3)</sup> الْهَيْابَةَ<sup>(4)</sup> الْوَكِلُ  
يَغْشَى الْقِتَالَ فَإِنْ تَضَلَّهِ فَالْتَقِهِ      حَيْثُ الْحُتُوفُ عَلَى الْأَرْوَاحِ تَقْتَبِلُ  
إِيَّاكَ مِنْ أَسَدٍ تَشْقَى الْأَسُودَ بِهِ      فِي كَفِّهِ غُلَّةٌ<sup>(5)</sup> تَرْوِي بِهَا الْغُلْلُ  
وَلَا تُحَدِّثُ عَنِ الدُّنْيَا فَمَا مَلِكُ      تَحُلُّ فِي جَيْشِهِ الدُّنْيَا وَتَرْتَحِلُ  
وَقَائِدٌ تَرُدُّهُي الْأَفَاقُ طَلَعَتْهُ      إِذَا ذُكِّمَتْ زَهَاهَا الثُّورُ وَالْحَمْلُ

واستغرق الشاعر في وصف الجهاد والشجاعة، في يوم كربه المنظر لا تزيينه الحلي على فيقول<sup>(6)</sup>:

وَعَزَمَةٌ فِي جِهَادِ الْكُفْرِ مَاضِيَةٌ      عَنْ غَرْبِهَا لَا الشَّبَا<sup>(7)</sup> الْمَاضِي وَلَا الْأَسْلُ<sup>(8)</sup>  
يُدْعَى الْأَمِيرُ أَبُو يَحْيَى بِهَا وَلَهَا      إِذَا تَوَاكَلَ أَقْوَامٌ أَوْ اتَّكَلُوا  
خَفَّ الْأَعَادِي بِهَا عَنْ عَقْرِ دَارِهِمْ      لَقَدْ عَجَلَتْ إِلَيْهِمْ أَوْ لَقَدْ عَجَلُوا

إلى أن يقول :

يَوْمَ شَتِيمِ الْمُحْيَا لَا يُزَيِّنُهُ      حُلِيٍّ وَإِنْ كَانَ لَا يُزِرِي بِهِ الْعَطْلُ<sup>(9)</sup>

- (1) سلمى سلمان علي، القيم الخلقية في المجتمع الأندلسي، ص : 188 .  
(2) الديوان، ص : 114، 115 .  
(3) عرد : الشديد من كل شيء، ابن منظور، لسان العرب، مادة عرد .  
(4) الهيابة : الإجلال والمخافة، ينظر : م.ن، مادة هيب .  
(5) غلة : شدة العطش وحرارته، ينظر : م.ن، مادة غل .  
(6) الديوان، ص : 115 .  
(7) الشبا : شبة كل شيء حد طرفه، ينظر : لسان العرب، ابن منظور، مادة شبا .  
(8) الأسل : إذا صار ذا سلة وإذا أعان غيره عليه، ينظر : م.ن، مادة سلل .  
(9) العطل : عطلت المرأة إذا لم يكن عليها حلي ولم تلبس الزينة وخلا جيدها من القلائل، ينظر : م.ن، مادة عطل .

ومن ثم ينتقل الشاعر إلى معاني الكرم والجود، فالممدوح كالبحر في الجود، عالي الهمة ماجد، لا يستطيع أيا كان النيل منه، فيقول (1) :

وَبَحْرُ جُودٍ إِذَا التَّجَّتْ عَوَارِبُهُ فَأَبْلَغَ الْبَحْرَ عَنِّي أَنَّهُ وَشَلُّ (2)  
وَبَاذِخٌ (3) لَا تَنَالُ الطَّيْرُ ذِرْوَتَهُ حَتَّى سَوَاءً بِهِ الْعِقْبَانُ وَالْحَجَلُ

وفي القصيدة الثانية التي يمدح فيها هذا الأمير يستهلها التطيلي بالشكوى والتضرع للممدوح من خطوب الزمان، وما آل إليه حاله وحال أسرته التي فقدت معيها وحاميتها بفقدانه لبصره وعجزه، فيقول (4) :

أَقُولُ وَهَزَّتْنِي إِلَيْكَ أَرِيحَةٌ (5) كَمَا مَالَ غُصْنٌ أَوْ تَرَنَّحَ نَشْوَانُ  
وَفِي الْمَهْدِ مَبْغُومٌ (6) النِّدَاءِ وَكَلَّمَا أَهَابَ بِشَوْقِي فَهُوَ قُسٌّ (7) وَسَحْبَانُ  
يَجِدُّ بِقَلْبِي حُبُّهُ وَهُوَ لَاعِبٌ وَيَبْعَثُ هَمِّي ذِكْرُهُ وَهُوَ جَذْلَانُ  
وَأُخْرَى قَدْ اسْتَفَّ الزَّمَانُ شَبَابَهَا وَلَمْ يُرَوْهَا إِنَّ الزَّمَانَ لَظْمَانُ

ثم ينتقل إلى وصف جود وكرم الممدوح من أجل كسب عطفه ووده ليساعده على مواجهة خطوب الزمن من خلال إجزاله عطايه ومساعداته فيقول (8) :

تَقُولُ أبا يَحْيَى وَتُعْرِضُ لَوْعَةً بِذِكْرِي فَيَلْتَفُّ ارْتِيَاخٌ وَرِيحَانُ  
وَلَيْسَ بِي الْإِضْرَابُ عَنكَ وَلَا بِهَا وَلَكِنَّ َّ إِشْفَاقَ الْوَحِيدَةِ سُلْطَانُ  
وَجُودُ أَمِيرٍ كَلَّمَا مَرَّ ذِكْرُهُ فَهَاتِ اسْقِنِي إِنَّ الْأَحَادِيثَ أَلْحَانُ

وهو في هذه القصيدة يقر علنا بأنه ينتظر العطاء والامن من ممدوحه، إذ لم يستحي من طلب المساعدة والمعونة من هذا الأمير إنما صرح بذلك علانية من خلال شكواه وتضرعه، ودافع ذلك - دائما - هو العاهة والعجز .

ومن ممدوحيه الأمراء أيضا، إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، وهذا الأمير عرف برعايته

(1) الديوان، ص : 115 .

(2) وشل : المعوج، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة شلل .

(3) باذخ : أي عال، ينظر : م.ن، مادة بذخ .

(4) الديوان، ص : 222 .

(5) أريجة : الريح الطيبة، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة أرج .

(6) مبعوم : الولد، ينظر : م.ن، مادة بغم .

(7) قس : أشعث في هيكله، ينظر : م.ن، مادة قسس .

(8) الديوان، ص : 222 .

للأدب والأدباء وإسناده إياهم، فهو يمثل الطرف الآخر من طرفي الأسرة الحاكمة، طرف الثقافة والعلم والنور، فهو من الساسة والحكام المثقفين وأصحاب الذوق الأدبي الرفيع، وهذا جعل الأعمى التطيلي يضع منهجا محددًا للقصيدة التي خصصها في مدحه؛ إذ حرص على تبيان ثقافته الشعرية، فأكد هذا بذكر العديد من الشعراء المشهورين مثل: قطري بن الفجاءة<sup>(1)</sup> و عمران بن حطان<sup>(2)</sup>، و والبة بن الحباب<sup>(3)</sup>، وحسان بن ثابت<sup>(4)</sup> في قوله<sup>(5)</sup> :

قَطْرِيٌّ أَحَقُّ بِالْفَلَجِ<sup>(6)</sup> مِنْ عَمْرَانَ فِي مَنْ يَقُولُ بِالتَّحْكِيمِ<sup>(7)</sup>  
أَنَا لِلْوَالِبِيِّ لَسْتُ لِحَسَا نَ فَإِنْ سَرَكَ الْمَلَامُ فَلُومِي

وهؤلاء الشعراء الذين استشهد بهم الأعمى التطيلي ووظفهم في شعره، من المشاركة، لذا جاءت قصيدته وفق البناء التقليدي المشرقي، فابتدأها بمقدمة خمرية، واسترسل نحو الغزل وبعده انتقل إلى الغرض الأساسي من القصيدة وهو المديح، فيعرفنا على صفات الأمير إبراهيم والتي أولها الكرم، إذ يقول<sup>(8)</sup> :

لَا تُحَدِّثْ عَلَيَّ بِلُهْنِيَةِ الْعِي شٍ وَلَكِنْ عَن جُودِ إِبْرَاهِيمِ  
عَنْ عَطَايَا هِيَ الْغُيُومُ وَإِنْ مَيَّ زَهَا الْبِشْرُ عَنْ سَمَاءِ الْغُيُومِ

- (1) قطري بن الفجاءة : وهو جعونة بن مازن بن يزيد الكناني المازني التميمي أبو نعامه، شاعر الخوارج وفارسها وخطيبها والخليفة المسمى أمير المؤمنين في أصحابه، وكان من رؤساء الأزارقة وأبطالهم، أتى شعره في الحماسة كثير، وله شعر في كتاب شعر الخوارج . ينظر: محمد موسى الوحش، موسوعة أعلام الشعر العربي، ص:94.  
(2) عمران بن حطان : وهو من الخوارج، ينظر : الديوان، ص : 164 .  
(3) والبة بن الحباب : ولعل التطيلي يشير هنا إلى قوله :

فَلَبْتُ لِسَاقٍ يَبِينَا عَلَى خُلُوفَةٍ أَدْنُ كَذَا رَأْسِكَ مِنْ رَأْسِي  
وَأَدْنُ فَضَعِ صَدْرِكَ لِي سَاعَةً إِنِّي أَمْرُؤُ أَنْكَحُ جُلَاسِي

- ينظر : م.ن، ص.ن  
(4) حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد شاعر النبي (ص) وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية و الإسلام، عاش ستين سنة في الجاهلية و مثلها في الإسلام وكان من سكان المدينة، واشتهرت مدائحه في الغسانيين وملوك الحيرة، وتوفي في المدينة. ينظر: محمد موسى الوحش، موسوعة أعلام الشعر العربي، ص:58.  
(5) الديوان، ص : 164 .  
(6) الفلج : فلج كل شيء نصفه، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة فلج .  
(7) هذا البيت مستمد من قول أبي نواس، عندما نهى عن شرب الخمر :  
كَبُرَ حَظِّي مِنْهَا إِذَا هِيَ دَارَتْ أَنْ أَرَاهَا وَأَنْ أَشُمَّ النَّسِيمَا  
فَكَأَنِّي وَمَا أَرَيْتُ مِنْهَا فَعَدِي يُرَيِّنُ التَّحْكِيمَا  
كُلُّ عَنْ حَمَلِهِ السَّلَاحُ إِلَى الْحَرْبِ فَأَوْصِي الْمَطِيقَ الْأَيُّمِيمَا  
- ينظر : ابن منظور المصري، أبو نواس في تاريخه وشعره ومبازله وعبثه ومجونه، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص:102.  
(8) الديوان، ص : 166 .

ثم ينتقل إلى عرض صفات الممدوح المعنوية بأسلوب فني جميل إذ يقول<sup>(1)</sup> :

بَاهِرٌ كَالصَّبَاحِ، أَيَهُمْ<sup>(2)</sup> كَاللَّيْلِ عَمِيمٌ<sup>(3)</sup> فِي كَيْلِ خَطْبِ عَمِيمِ  
 وَمَنِيْعُ الدَّمَارِ<sup>(4)</sup> بِالإِسْتِطَالَا تِ عَلَى وَفْرِهِ لِعُدْمِ<sup>(5)</sup> العَدِيمِ  
 أَرِيحِي<sup>(6)</sup> إِلَيَّ المَكَارِمِ هَشٌّ فِي صَرِيحٍ مِنَ المَعَالِي صَمِيمِ<sup>(7)</sup>  
 وَبَعِيدُ المَرَامِ لَا يِرَامُ<sup>(8)</sup> الضَّيْمِ مَ<sup>(9)</sup> أَبِي لَا يَأْتِنِي بِالمَضِيمِ  
 قَلْبُ القَلْبِ، رَابِطُ الجَاشِ، رَحْبُ الصَّدْرِ، وَارِي الذِّكَاةِ، مَاضِي العَزِيمِ

فقد وصفه بأن طلعتة جميلة وباهرة رغم ذلك السواد الذي يعتريه، وأنه طويل القامة متصد للخطوب حام لأعراضه حافظ لها، واسع الخلق نشيط إلى فعل المعروف والخير كاره للظلم محارب له، كل هذه الصفات جعلت منه أميرا محببا عند جل الشعراء يتسابقون إلى مدحه وكسب رضاه ومودته .

وبعد هذا الوصف المعنوي للممدوح، يعطف الشاعر نحو التغني بصفات الأمير إبراهيم الثقافية والبيانية، وما عرف عنه من علم وإطلاع، يقول<sup>(10)</sup> :

وَبَلِيغٌ تَرَاهُ فِي كُلِّ نَادٍ فَارِسًا فِي القَصِيدِ وَالمَنْظُومِ  
 يُحِجُّمُ الدَّهْرُ عَنْهُ عَن كَلِمَاتٍ وَقَعَهَا فِي حَشَاهُ وَقَعُ الكُلُومِ<sup>(11)</sup>

وفي نهاية هذه القصيدة يحذر الأعمى التطيلي الممدوح من الأعداء والمكيدين ، مع أنه لم يصرح بهم، لكن « يذكر ابن خلكان (ت 681هـ)، أن علي بن يوسف كان سببا في مقتل ابن خاقان »<sup>(12)</sup>، كون ابن خاقان يثني في مقدمة كتابه قلائد العقيان بفضل الممدوح

- (1) الديوان، ص : 166 .  
 (2) أيهم : يقال ليل أيهم أي لا نجوم فيه، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة بهم .  
 (3) عميم : الطويل من الرجال، ينظر : م.ن، مادة عمم .  
 (4) الدمار : الحرم والأهل، ينظر : م.ن، مادة نمر .  
 (5) عدم : فقدان الشيء وذهابه، رجل عديم لا عقل له، ينظر : م.ن، مادة عدم .  
 (6) أريحي : الرجل الواسع الخلق النشط إلى المعروف، ينظر : م.ن، مادة روح .  
 (7) صميم : يقال للرجل هو من صميم قومه إذا كان خالصهم، ينظر : م.ن، مادة صمم .  
 (8) يرأم : يقال أرام الرجل على الشيء أكرهه، ينظر : م.ن، مادة رأم .  
 (9) الضيم : الظلم، ينظر : م.ن، مادة ظيم .  
 (10) الديوان، ص : 167 .  
 (11) الكلوم : جمع كلم أي الجرح، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة كلم .  
 (12) محمد عويد الطربولي، الأعمى التطيلي شاعر عصر المرابطين، ص : 31 .

ويعترف برعايته له، ومن هنا « ربّما يكون علي عدوا لأخيه إبراهيم نفسه »<sup>(1)</sup> .  
 يقول الأعمى التطيلي<sup>(2)</sup> :

## وَإِذَا لَمْ أَفْصِحْ حِذَارَ الْأَعَادِي فَأِلَى مَجْدِكَ الْمُؤَثَّلِ أَوْمِي

ورغم حظو إبراهيم ابن يوسف ابن تاشفين بإعجاب التطيلي، إلا أنه مدحه بقصيدة واحدة فقط، ومدح أخاه علي ابن يوسف - الذي لطالما كان منصرفا إلى الشؤون الإدارية ومبتعدا كل البعد عن الجانب الأدبي- بأكثر من قصيدة و نعتقد أن هذا راجع إلى محاولة الشاعر استعطاف وكسب ود الأمير علي حتى ينال الحظوة والمكانة الرفيعة عنده، عكس أخيه الذي حاول هو بحد ذاته تقريب الشعراء والأدباء ودعوتهم إلى بلاطه، وقد يكون ذلك راجع إلى أن شاعرنا حاول دائما التكسب ونيل العطايا، مهما كانت شخصية الممدوح، فهو لا يهمله هنا سوى الجانب المادي ودافعه إلى ذلك هو العاهة والعجز، وهناك رأي آخر قد يفرض نفسه في هذا الموقف وهو أنه قد تكون هناك قصائد قد سقطت من الديوان أو لم يعثر عليها محقق الديوان أصلا.

## ب- مديح القادة والفرسان :

وقد مدح الأعمى التطيلي قيم الفروسية والعزيمة والحنكة السياسية في ممدوحيه؛ إذ خصص قصيدتين من ديوانه في مديح فرسان أقليمش<sup>(3)</sup>، وتسجيل الأحداث السياسية التي حققها المرابطون في هذه الموقعة الشهيرة<sup>(4)</sup>؛ تمّ فيها إيقاف جيش النصارى من الزحف نحو الأندلس، ودخلت على إثرها الأندلس في عهد دولة جديدة تاريخيا وسياسيا .  
فهو يمدح القائد البطل ابن الربيع<sup>(5)</sup> الذي خاض غمارها، فيرتبط اسم الممدوح ولمعانه بمعركة إقليمش، والدور البارز الذي قام به في تلك المعركة الحاسمة، ويبدو أن القصيدة قيلت بعد تلك الموقعة ففيها « تهنئة بما بلغه من رفعة ومقام كريم لشجاعته المنتاهية، بعد أن

(1) محمد عويد الطربولي، الأعمى التطيلي شاعر عصر المرابطين، ص : 31 .

(2) الديوان، ص : 168.

(3) أقليمش : مدينة لها حصن في ثغر الأندلس، وهي قاعدة كور شنتنبرية، وهي محدثة بناها الفتح بن موسى بن ذي النون، لكن الأستاذ عنان يرى أن الفتح بن موسى لم ينشئ إقليمش فقد كانت ثورته في بداية عهد الناصر بعد سنة 300هـ، ولذا فإن إنشائها وقع في أواخر القرن الثالث، ينظر : محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين بالأندلس، ص : 61 .

(4) سبق شرحها في المدخل .

(5) هو فارس أشعري النسب كنيته أبو الحسين، ويسميه الشاعر ابن الربيع، ينظر: الديوان، ص : 193 .

يدعوه للصبر على صروف الزمان، ويستغرق أكثر أبياتها في الثناء على ممدوحه بعد

أن جمع السيادة والدين «<sup>(1)</sup>، فنجده يقول<sup>(2)</sup> :

رَكَبَتِ الْخُطُوبَ وَأَرْكَبَتَهَا      تَكْفُ الْجِمَاحَ<sup>(3)</sup> وَتُكْفَى الْجِرَانَا<sup>(4)</sup>

وَأَشْبَهَتْ أَبَاءَكَ الْأَكْرَمِينَ      عَرْضًا عَزِيزًا وَمَالًا مُهَانَا

وَأَحْسَنْتَ بَيْنَ النَّدَى وَالنَّدَى حَيًّا وَقَاحًا<sup>(5)</sup> جَرِيًّا جَبَانًا

والشاعر في هذه القصيدة كثيرا ما يردد المعاني العربية كالبطولة والفروسية التي تغنى بها العرب قديما في الجاهلية، فيشيد بشجاعة الممدوح وقوة بأسه ومدى سعيه إلى تحقيق المجد والرفعة في جو من الحماسة التي صنعتها فخامة اللفظ وقوة العبارة فيقول<sup>(6)</sup> :

تَلَاَفَ فُلَانًا وَأَخْلِفَ فُلَانًا َكَفَاتَا مُنَى وَكَفَاتَا امْتِنَاتَا

وَطَاوِلَ بِعَمْرِكَ عُمَرَ السُّهَى<sup>(7)</sup> فَأَبْلَ زَمَانًا وَجَدَّدَ زَمَانًا

وَلُحَّ إِنِّ خَلَا الْأَفْقُ مِنْهُ فَأَنْتَ َأَسْنَى كَيَانًا وَأَسْمَى مَكَانًا

وَأَمَّا وَقَدْ أَصْبَحَ النَّاسُ مَجْدًا َسَمَاعًا، فَكُنْ أَنْتَ مَجْدًا عَيَانًا

ويعرض لموقعة إقليش – دائما – وما أنجزه المرابطون في هذه المعركة، ويؤكد ما حلّ بالمسلمين من سعادة وسرور جزاء النصر الذي سعوا إليه، ومن ثم يهنئ الممدوح الذي هو أحد أهم أسباب النصر وأهم أعمدته، فهو هنا يثبت شدة بطشه في هذه المعركة ومدى قوته وشجاعته، فيقول الأعمى التطيلي<sup>(8)</sup> :

(1) منجد مصطفى بهجت، الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي، ص : 294 .

(2) الديوان، ص : 193 .

(3) الجماح : جمح الفرس بصاحبه ذهب يجري جريا غالبا وغلبيه، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة جمح .

(4) الحرانا : جناب الرجل يقال لا تقربن حرانه : ينظر : م.ن، مادة حرى .

(5) وقاحا : رجل وقاح الذنب صبور على الركوب، ينظر : م.ن، مادة وقح .

(6) الديوان، ص : 189 .

(7) السهى : كويكب صغير خفي الضوء، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة سها .

(8) الديوان، ص : 193، 194 .

وَصَبَّحْتَ أَقْلِيشَ فِي جَحْفَلٍ<sup>(1)</sup> َأَغَصَّ<sup>(2)</sup> الْوِهِادَ وَآدَ<sup>(3)</sup> الرَّعَاتَا<sup>(4)</sup>بِكُلِّ كَمِيٍّ<sup>(5)</sup> يَرُوغُ الْأَسْوَدَ َخِمَاصًا<sup>(6)</sup>، وَيَزْعَى عَلَيْهَا بَطَانًا

فَأُبَّتْ وَغَادَرَتْ تِلْكَ الدِّيَارَ ِعَجَافًا تَهَادَى خُطُوبًا سِمَانًا

أما القصيدة الثانية فجاءت في مديح أحمد بن أبي عبد الملك<sup>(7)</sup>، فهو رجل حرب، وصاحب نجدة، ولذا جاءت هذه القصيدة المدحية مكتظة بمعاني الشدة والقوة، فمعنى

الشجاعة يشع عندما تكون في سبيل الدفاع عن مبادئ الإسلام وللاقدام مكانته عندما يتراجع الآخرون وفي هذا المعنى يقول الأعمى التطيلي (8) :

يَمِينُكَ أَوْرى إِنْ قَدَحْتَ مِنَ الزَّنْدِ      وَوَجْهُكَ أَجْدَى إِنْ قَدِمْتَ مِنَ السَّعْدِ  
وَعَزْمُكَ أَمْضَى حِينَ يَشْتَجِرُ القَنَا      مِنْ الأَسْمَرِ الخَطِيّ وَالأَبْيَضِ الهَنْدِي  
وَذِكْرُكَ أَحْلَى أَوْ أَلْدُّ مِنَ المُنَى      وَإِنْ قِيلَ أَحْلَى أَوْ أَلْدُّ مِنَ الشَّهْدِ

ثم يعتمد إلى تصوير عظمة جيش المسلمين في معركة إقليش، مستمدا من صفات القائد ما عرف عنه المسلمون من بأس وقوة وبسالة لا تتأى عن كل من أراد الدفاع عن وطنه، ونصرة دينه، وطرد الغاصب المحتل وبهذا، لا بدّ أن يكون جيش النصارى كما يقول فرانس سهلة لأسود وخيول ما تنفك تطعنهم وتدوس وجوههم المنعمة (9) :

- (1) جحفل : الجيش الكثير ولا يكون كذلك حتى يكون فيه خيل، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة جحفل .
- (2) أغص : أغص فلان الأرض علينا أي ضيقها فغصت بنا أي ضاقت، ينظر : م.ن، مادة غصص .
- (3) أد : الغلبة والقوة، ينظر : م.ن، مادة أدد .
- (4) الرعانا : وهو الأنف العظيم من الجبل تراه متقدما ومنه قيل للجيش العظيم أرعن، ينظر : م.ن، مادة رعن .
- (5) كمي : الشجاع المتكفي في سلاحه لأنه كمي نفسه أي سترها بالدرع والبيضة، ينظر : م.ن، مادة كمي .
- (6) خماصا : الجائع الضامر البطن، ينظر : م.ن، مادة خمص .
- (7) أحمد بن أبي عبد الملك : هذا الرجل لم نعثر له عن أي ترجمة في مختلف المصادر المتوفرة لدينا ولا نعرف عنه شيئا إلا من خلال القصيدة التي أشار فيها الشاعر إلى اسمه وعرض لخصاله، وإحسان عباس في ديوان الأعمى التطيلي يذكر أنه لم يجد له ذكرا في المصادر، ينظر : الديوان، ص : 31 .
- (8) الديوان، ص : 28 .
- (9) م.ن، ص : 31، 32 .

سَلِّ الرُّومَ فِي أَقْلِيشَ يَوْمَ تَجَايَشُوا      أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الفَرَّائِسَ لِلأُسْدِ  
تَبَارُوا إِلَى تِلْكَ الحُتُوفِ فَسَلِّهِمْ      أَمَا كَانَ عَنْهَا مِنْ مَحِيصٍ (1) وَلَا بَدِّ  
أَلَمْ يَكُنْ فِي الإِسْلَامِ مِنْ مُتَعَرِّضٍ      بِكَفِّ وَلَا فِي السَّلْمِ مِنْ عَرَضٍ يَفْدِي  
وَلَا فِي جُنُودِ اللهِ حِينَ أَتَنَكَّمُ      لَهَا مِنْ قَدِيرٍ يَدْفَعُ الهَزْلَ بِالجِدِّ  
عُدَاةَ رَمَائِكُمْ كُلُّ طُودٍ (2) بِمِثْلِهِ      مِنْ القَصَبِ المُنَادِّ (3) وَالحَلْقِ السَّرْدِ (4)  
أَعَزُّ مِنَ الهَضْبِ الَّتِي قَدَفَتْ بِهَا      فَمَا بَالَكُمْ كُنْتُمْ أَدَلَّ مِنَ الوَهْدِ

أَلَمْ تَزْعَمُوا أَنَّ الصَّلِيبَ وَائْتَهُ كَأَنَّكُمْ لَمْ تَسْمَعُوا بِالْقَتْلِ الْمَلْدِ<sup>(5)</sup>  
 رُوَيْدُكُمْ حَتَّى تَرَوْا كَيْفَ تَرْتَمِي بِأَنْفُسِكُمْ بَيْنَ الْإِجَازَةِ وَالرَّدِّ  
 وَحَتَّى تَدُوسَ الْخَيْلَ أَوْجُهُ فَتِيَّةٍ كِرَامٍ عَلَيْهَا غَيْرِ شُومٍ وَلَا نُكْدِ

إذ نستطيع أن نلتمس آثار البطل القائد في عصر المرابطين عند الأعمى التطيلي وحتما إن صفات البطل هذه ما كانت لتكون لولا خوضه المعارك ونجدته فيها، بحيث ولد أثره عند الناس، ومن ثم عند الشاعر الذي أراد أن يخلد سيرته ويكتب آثاره عن طريق النص الشعري، فالشعراء عامة كانوا « يقفون أمام البطل مذهولين كأنما يستتر في طواياه قوى خفية، وهي قوة مكنت له - في رأيهم - من الإتيان بالخوارق في البسالة وقتال أعدائهم، وهي خوارق لا تقف عند نجاته من القتل، بل تمتد إلى نجاتهم معه نجاة جعلتهم، يشعرون بقوة أنه هو الذي يهبهم الحياة<sup>(6)</sup>»، والأعمى التطيلي ليس سوى شاعر من أولئك الشعراء، يقف أمام ممدوحه مبرزاً صفاته لاسيما الشجاعة الفائقة التي يتمتع بها والتي تتطلبها الحرب التي يقودها فيقول<sup>(7)</sup>:

هُنَاكَ عَرَفْتُمْ أَيْنَ أَحْمَدُ مِنْكُمْ وَكَانَ حَرِيًّا بِالْبِدَارِ إِلَى الْحَمْدِ

- (1) محيص : أي محيذ ومهرب، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة : حيص .
- (2) طود : الجبل العظيم والطود الهضبة، ينظر : م.ن، مادة طود .
- (3) المناد : العود إذا إنثنى وإعوج، ينظر : م.ن، مادة أود .
- (4) السرد : وهو تداخل الحلق بعضها في بعض وسمي سرداً لأنه يسرد فينقب طرفاً كل حلقة بالمسار، م.ن، مادة سرد .
- (5) الملد : مصدر الشباب، والملد اهتزاز الغصن ونغمته، ينظر : م.ن، مادة ملد .
- (6) شوقي ضيف، البطولة في الشعر العربي، دار المعارف، مصر، 1970، ص : 09 .
- (7) الديوان، ص : 32 .

## 2- المديح الاجتماعية :

وهو ذلك المديح الذي لا يرتبط بشخصية الحاكم أو أصحاب المناصب من أمراء وفرسان وقادة وقضاة؛ بل هو مرتبط بحياة الشاعر الاجتماعية وماله من علاقات قرابة وصلات لا تتصل بالمناصب والوظائف ولا تمس رجالها<sup>(1)</sup>.

### أ- مديح الأصدقاء :

ومن أهم تلك الصلات الاجتماعية هي رابطة الصداقة، فقد أشاد الشعر الأندلسي بالصداقة ومجدها وحث على دوامها، ولقد سما الشعراء بصلات الأخوة والصداقة إلى مقام رفيع، وتلك وشائج كانت متينة بحكم كونها وشائج أخوة في الله ورباطات مودة روحية<sup>(2)</sup>

والأعمى التطيلي يمدح صديقه ابن بياح السبتي<sup>(3)</sup>، حيث يذكره بالزيارة والوصل، يقول<sup>(4)</sup>:

أَبَا حَسَنٍ دُعَاءً أَوْ حَنِينًا      وَلَا أَلُوكَ إِنْ كَانَتْ خَبَالًا  
أُنَادِي فِي التَّظْلُمِ مِنْ زَمَانٍ      عَدَا تِلْكَ الزِّيَارَةَ وَالْوِصَالَ

وصفات الممدوح لا تخرج عن نطاق معاني الكرم والشجاعة والعلو وسعة العلم، فيقول<sup>(5)</sup>:

أَبَا حَسَنٍ وَإِنَّ الْحُسْنَ مِمَّا      تُشِيرُ بِهِ مَقَالًا أَوْ فِعَالًا  
لَكَ الْفَضْلُ الَّذِي هُوَ فِيكَ طَبَعٌ      إِذَا احْتَقَبُوهُ غَضَبًا وَانْتِحَالَ  
فَبُنْتُ حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ عِلْمًا      كَفَاكَ الْبَحْثَ عَنْهَا وَالسُّوَالَ  
نَمَتَكَ إِلَى الْمَكَارِمِ وَالْمَعَالِي      إِذَا نَجَمَ تَكَارَمٌ أَوْ تَعَالَى

ويستمر الأعمى التطيلي في وصف الممدوح، وإضفاء معاني الكرم والشجاعة لدرجة أن بنات صدر الشاعر – كناية عن القوافي – ستأتيه وتبلغه الهوى تكريماً وإحساناً<sup>(6)</sup>:

- (1) محمد عويد الطربولي، الأعمى التطيلي شاعر عصر المرابطين، ص: 39 .  
(2) محمد مجيد السعيد، الشعر في ظل بني عباد، المكتبة الأندلسية، ط1، 1972، ص: 449 .  
(3) أبي الحسن ابن بياح السبتي: لم نعثر له على ترجمة فيما بين يدينا من مصادر، ولكن ذكر ابن بسام أنه عارض التطيلي بقصيدة ورد منها بيت وحيد في الذخيرة:  
وَرَدَّتْ بِهَا التَّنُوفَةُ وَهِيَ بَدْرٌ      فَلَمْ أَصْدُرْ بِهَا إِلَّا هَلَالًا  
- ينظر: ابن بسام، الذخيرة، ص: 731 .  
(4) الديوان، ص: 243 .  
(5) م.ن، ص.ن .  
(6) م.ن، ص: 245 .

أَبِيْعُكَ يَا ابْنَ بِيَاحِ فُوَادِي      وَغَيْرِي مَنْ إِذَا نَدِمَ اسْتَقَالًا  
وَأَصْفِيكَ الْوِدَادَ وَغَيْرُ وِدِّي      إِذَا حَالَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ حَالًا  
إِلَيْكَ هَوَايَ تَكْرَمَةً وَبِـرًّا      إِذَا كَانَ الْهَوَى قَيْلًا وَقَالَ  
وَمَعْدِرَةً بِسِيرِ بَنَاتِ صَدْرِي      إِلَيْكَ بِهَا اخْتِصَارًا وَاخْتِفَالًا

يحاول شاعرنا من خلال هذه القصيدة تأكيد القيم الخلقية الرفيعة، والخلال السامية التي يتميز بها الممدوح، وهو يدعو إلى تجاوز الهفوات، والصبر عن الأذى الذي قد يبدو من الصديق؛ لأن خلوص المودة ودوامها أمر عسير، والشعراء الأندلسيون – بصفة عامة –

« مضوا في دعوتهم إلى أبعد من ذلك، فدلّفوا إلى ذكر حقوق الجيرة على نحو فريد »<sup>(1)</sup> و نعتقد أن الأعمى التطيلي لم يتوسع في هذا النوع من المديح، واكتفى بقصيدة واحدة، كون مديحه يهدف - في الأساس - إلى التكبس وإجزال العطايا من الممدوحين، وبما أن الصداقة تنأى عن كل مطلب مادي وعن أي مطمع للكسب وطلب الرزق من خلالها، فقد ضاق مجالها في ديوان الأعمى التطيلي .

### ب - مديح المرأة :

ومن مديحه الاجتماعي مدحه للمرأة؛ حيث كانت المرأة في عصر المرابطين تتمتع بنصيب وافر من الحرية، بوأها لأن تتدخل في الكثير من الشؤون الاجتماعية والسياسية، وأن يكون لها رأي مسموع فيها، ونتيجة لذلك ظهرت قصائد مديح النساء وراثهن، وذلك نظرا لما يكنه الرجل للمرأة من احترام وتقدير<sup>(2)</sup>، وتمتعت المرأة المرابطية « بنفوذ واسع ومكانة مرموقة، وسلطة كبيرة لم تعهدها عصور الحكم الإسلامي في الأندلس طوال ثمانية قرون »<sup>(3)</sup> .

- (1) محمد مجيد السعيد، الشعر في ظل بني عبّاد، ص : 449 .  
 (2) سعد بوفلاحة، الشعر النسوي الأندلسي أغراضه وخصائصه الفنية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1995، ص : 152 .  
 (3) محمد صبحي أبو حسين، صورة المرأة في الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، ط 2، 2005، ص : 153 .

ومديح النساء لا يختلف من حيث المنهج عن مديح الرجال، فحينما يمدح الأعمى التطيلي المرأة الحواء<sup>(1)</sup>، يسير وفق منهج القصيدة العربية القديمة في المديح فيستهلها بالوقوف على الأطلال، ومساءلة الديار ومناجاتها، ثم يتحسر على أيام الحبيبة التي مضت فيها ولم يبق منها سوى الدمن والآثار تحرق قلبه كلما نظر إليها وتزيد من لوعة الاشتياق، فيقول<sup>(2)</sup> :

وَلِي حَبِيبٌ وَإِنْ شَطَّ<sup>(3)</sup> الْمَزَارُ بِهِ      بَيْنِي وَبَيْنَ الرَّدِيِّ فِي حُبِّهِ سَبَبُ  
 يَا دَوْلَةَ الْوَصْلِ هَلْ لِي فِيكَ مِنْ أُمَّ لٍ      هَيْهَاتَ لَيْسَ لِشَيْءٍ فَاتَ مُطْلَبُ  
 كَمْ لَيْلَةٍ بَتُّهَا أَجْلُو عَيَاهِبَهَا      بَبْدَرِهَا التَّمَّ لَا مَيِّنٌ<sup>(4)</sup> وَلَا كَذِبُ

ثم ينتقل التطيلي إلى ذكر «زهر» التي راحت تعاتبه لعوده عن طلب الثراء والرتب، وهي تطلب منه أن يقصد الحرة حواء مادحا فهي أمله في الغنى وملاذهم من الفقر، يقول (5) :

هَبَّتْ تُعَاتِبُنِي زَهْرٌ وَقَدْ عَلِمَتْ      أَنَّ الْعِتَابَ شَجِي (6) فِي الْقَلْبِ أَوْ شَجَبٌ (7)  
قَالَتْ قَعَدَتْ وَقَامَ النَّاسُ كُلُّهُمْ      أَلَا يَعْلَنُكَ الْأَثْرَاءُ وَالرُّتَبُ ؟

ثم يتخلص إلى المديح، وقد اتبع شاعرنا هذا المنهج؛ لأن « الممدوح امرأة فحاول إطرابها وإثارة عواطفها بوصف الحب والشكوى للحصول على عطفها وعطاياها » (8)، ويعتبرها الأمل الذي يرتجي منه الخير والغنى فيقول (9) :

أَمَا رَأَيْتَ نَدَى حَوَاءَ كَيْفَ دَنَا      بِالْغَيْثِ، إِذْ كَادَ يَأْتِي دُونَهُ الْعَطْبُ (10)

- (1) المرأة الحواء : وهي على ما يعتقد زوجة سير بن أبي بكر والي اشبيلية الذي أقام في تلك المدينة واليا عليها سبعا وعشرين سنة، أي من 481هـ، 507هـ، وفي سنة 507هـ غادر تلك المدينة بصحبة زوجته حواء وابنته فاطمة بغية تقديمها إلى علي في المدينة مراكش. ينظر : الديوان، ص : 295 .
- (2) م.ن، ص : 15، 16 .
- (3) شط : جاوزت مزار العاشقين، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة شطط .
- (4) مين : الكذب ومثله قوله كذبا ومينا، ينظر : م.ن، مادة مين .
- (5) الديوان، ص : 16 .
- (6) الشجي : بالكسر وأشجاك قهرك وغلبك حتى شجيت به شجا، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة شجا .
- (7) شجب : حزن أو هلك، ينظر : م.ن، مادة شجب .
- (8) محمد عويد الطربولي، الأعمى التطيلي شاعر عصر المرابطين، ص : 40 .
- (9) الديوان، ص : 16 .
- (10) العطب : الهلاك يكون في الناس وغيرهم، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة عطب .

وقد طرق الشاعر في الممدوحة أول صفة وأهمها، وهي فضيلة الكرم؛ لأنها من أكبر الفضائل بوصفها مظهرا من مظاهر القوة والسيادة والتكافل الاجتماعي في المجتمع المرابطي بصفة عامة والمرأة بصفة خاصة، كون المرأة هي مصدر ومنبع العطف والحنان، وهذا مبتغى الشاعر وقصده، ثم يذكر مناقبها ويصفها بالتدين والكرم والسّخاء والعطاء، والقدر العالي الذي يفوق قدر الملوك والأمراء، ويذكر ما حازت عليه من السيادة والشرف وطيب النسب، والإحسان إلى الرعية إلى درجة أن فضلها وبرّها قد عمّ أهل الأرض كلهم، يقول (1) :

دُنْيَا وَلَا تَرْفٌ، دَيْنٌ وَلَا قَشْفٌ      مُلْكٌ وَلَا سَرْفٌ، دَرْكٌ وَلَا طَلْبُ  
بِرٌّ وَلَا سَقَمٌ عَيْشٌ وَلَا هَرَمٌ      جِدٌّ وَلَا نَصَبٌ، وَرِدٌّ وَلَا قُرْبُ (2)  
مَلِيكَةٌ لَا يُوَارِي قَدْرَهَا مَلِكٌ      كَالشَّمْسِ تَصْعُرُ عَنْ مِقْدَارِهَا الشُّهُبُ  
وَلَاكَ أَبْهَجُ فَخْرٍ تَفْخَرِينَ بِهِ      إِذْ أَنْتَدَى لِلْفَخَارِ السَّادَةُ النُّجُبُ

قَدْ عَمَّ بِرِّكَ أَهْلَ الْأَرْضِ قَاطِبَةً فَكَيْفَ أَخْرَجَ عَنْهُ جَارُكَ الْجَنْبُ (3)

ثم يحاول الشاعر أن يدفع ما قد يدور في خلد البعض بأن الأنوثة منقصة، فيورد أدلة يبرز فيها تفوق الأنثى، إذ يقول (4) :

أَنْثَى سَمًا بِاسْمِهَا النَّادِي وَكَمْ ذَكَرٍ يُدْعَى كَأَنَّ اسْمَهُ مِنْ لُؤْمِهِ لَقَبُ  
وَقَلَمًا نَقْصَ التَّائِبِ صَاحِبَهُ إِذَا تُذَكَّرْتَ الْأَفْعَالُ وَالنُّصَبُ (5)

وَالْحَيَّةُ الصَّلُّ أَدَهَى كُلَّمَا أَنْبَعَثَتْ مِنْ أَنْ تَمَارِسَهَا الْأَرْمَاحُ وَالْقَضْبُ (6)  
وَهَذِهِ الْكَعْبَةُ اسْتَوْلَتْ عَلَى شَرَفٍ فَذُبُذِبَتْ دُونَهَا الْأَوْثَانُ وَالصُّلْبُ

ولا ينسى الأعمى التطيلي أن يشيد بأبائها وإخوتها وبما لهم من أمجاد ومفاخر (7) :

- (1) الديوان، ص : 17 .
- (2) القرب : سير الليل لورد الغد، والمعنى أن الورد لا يكلف صاحبه مشقة، ينظر : الديوان، ص : 17 .
- (3) الجنب : هو الجار الذي جاورك ونسبه في قوم آخرين، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة جنب .
- (4) الديوان، ص : 17 .
- (5) النصب : كل ما نصب فجعل علما، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة نصب .
- (6) القضب : الرمح والقضيب مذكران، ولكنهما يعجزان عن أفعال الحية وهي مؤنثة، ينظر، الديوان، ص : 17 .
- (7) الديوان، ص : 17، 18 .

يُنْمِيكَ كُلُّ بَعِيدِ الشَّأْوِ (1) فَائْتَهُ لَهُ الْبَسَالَةُ أُمَّ وَالسَّمَاخُ أَبُ

إِذَا رَضُوا فَارْجُهُمْ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ وَكُنْ عَلَى حَدَرٍ مِنْهُمْ إِذَا عَضِبُوا

بَنَى لَكَ ابْنَ عَلِيٍّ بَيْتَ مَكْرَمَةٍ لَهُ الْعَوَالِي عِمَادٌ وَالظُّبَا طُنْبُ (2)

يَا أُخْتَ خَيْرِ مُلُوكِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً وَإِنْ أَعْدُوا وَإِنْ أَسْمُوا وَإِنْ نُسِبُوا

وأخيرا يتذلل أمامها بتصاغر قائلا :

حَوَاءٌ يَا خَيْرَ مَنْ يَسْعَى عَلَى قَدَمٍ وَلَسْتُ عَبْدَكَ إِنْ لَمْ أَقْضِ مَا يَجِبُ

ويتفق – تقريبا – جميع مداحي النساء من الشعراء في خلع الصفات الدينية على الممدوحة وإظهارها بسمات التقوى والورع، مع الالتفات إلى ذويها وأصولها وإطرائهم والثناء عليهم (3)، ونلاحظ أن الأعمى التطيلي – كغيره من الشعراء – ركز في مديحه للسيدة حواء على الفضائل الإنسانية والخلقية كالكرم والعطاء والتدين والإحسان والبر والورع، وكل هذه الصفات أكسبتها قيمة اجتماعية ومكانة خاصة في المجتمع المرابطي، فمن جماليات مديحه أنه لم يهمل المرأة

أو يهمشها، وإنما احتلت حيزا هاما في شعره، فأضفى عليها أجمل الصفات وأروعها فكانت ندا للرجل في الكرم والعطاء والجود.

### ج- مديح أعيان المجتمع :

ومن أعيان المجتمع الأندلسي الذين مدحهم الأعمى التطيلي وأثنى عليهم، محمد بن عيسى الحضرمي<sup>(4)</sup> الذي يبدو أنه كان ذا شأن عظيم في عصره، وله في مدحه سبع قصائد<sup>(5)</sup>، لم يخرج فيها عن المعاني والصفات التي وردت في القصائد المدحية السابقة .

والقصيدة الأولى التي قالها في مديحه تبدأ بذكر حال الدنيا والعتاب عليها والشكوى من حالها وحال من يعيش فيها ويحاول مواجهتها والتصدي لها فيجدها تقابله بالصدمات المحزنة

- (1) الشأو : الغاية والأمد، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة شأو .
- (2) الطنب : حبل الخباء والسرادق ونحوهما، ينظر : م.ن، مادة : طنب .
- (3) محمد مجيد السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، ص : 109 .
- (4) محمد بن عيسى الحضرمي : ذكر إحسان عباس في الديوان أن هذه النسبة شائعة في عائلات أندلسية كثيرة بعضها من قرطبة وبعضها في مدن أندلسية أخرى، وهو يذكر بأن المصادر لم تسعفه بشيء عن شخصية محمد بن عيسى الحضرمي، ينظر : الديوان، ص : 294 .
- (5) الديوان، ص : 8، 53، 94، 95، 117، 168، 143، ويذكر محمد عويد الطربولي في دراسته أن الأعمى التطيلي مدح ابن عيسى الحضرمي في ست قصائد. ينظر : محمد عويد الطربولي، الأعمى التطيلي شاعر عصر المرابطين، ص : 38 .

الباكية، إذ يقول :

عَتَابٌ عَلَى الدُّنْيَا وَقَلَّ عِتَابُ رَضِينَا بِمَا تَرْضَى وَنَحْنُ غِضَابُ  
وَقَالَتْ وَأَصْعَيْنَا إِلَى زُورِ قَوْلِهَا وَقَدْ يَسْتَفِرُّ الْقَوْلُ وَهُوَ كَذَابُ  
وَعَطَّتْ عَلَى أَبْصَارِنَا وَقُلُوبِنَا فَطَالَ عَلَيْهَا الْحَوْمُ وَهِيَ سَرَابُ  
وَدَانَتْ لَهَا أَفْوَاهُنَا وَعُقُولُنَا وَهَلْ عِنْدَهَا إِلَّا الْفَنَاءُ ثَوَابُ

ثم ينتقل إلى وصف الشيب لكونه دليلا على بلوغ الإنسان الحكمة والخبرة في هذه الحياة<sup>(1)</sup>

بَكَتْ هُنْدٌ مِنْ ضَحْكِ المَشْيِبِ بِمَفْرَقِي أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّبَابَ خِضَابُ  
وَقَالَتْ عِبَارٌ مَا أَرَى وَتَجَاهَلْتُ وَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ النَّهَارِ نِقَابُ  
هَلْ الشَّيْبُ إِلَّا الرُّشْدُ جَلَى غَوَايَتِي فَأَصْبَحْتُ لَا يَخْفَى عَلَيَّ صَوَابُ

وبعد وصف الشيب ينتقل إلى شكواه من مدينته اشبيلية - حمص - بأسلوب ساحر ومعبر

فيقول<sup>(2)</sup> :

وَقَائِلَةٌ مَا بَالَ حَمَصٍ نَبَتَ بِهِ وَرَبِّ سُوَالٍ لَيْسَ عَنْهُ جَوَابُ

نَبَتَ بِي فَكُنْتُ الْعُرْفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ يَعُودُ عَلَى أَهْلِيهِ وَهُوَ تَبَابٌ<sup>(3)</sup>

فَبِاللَّهِ مَا اسْتَوْطَنْتَهَا قَانِعًا بِهَا وَلَا كُنْتُ سَيْفَ حَوَاهُ قُرَابٌ<sup>(4)</sup>

ثم يتخلص إلى وصف ممدوحه، فقد كان مجبولاً على خصال الشهامة والرفعة؛ إذ سيطرت المثل الإسلامية على حياته وتصادت القيم من بأس وجود وندى وحماسة في الدعوة إلى التحرر من القيود والجرأة في إيقاظ قومه من الغفوة والبذل في سبيل العقيدة وصدق القول ونقاء الضمير، هذه الصفات كلها صنعت له مجداً لا مثيل له؛ إذ يقول التطيلي<sup>(5)</sup> :

(1) الديوان، ص : 9،8 .

(2) م.ن، ص : 9 .

(3) تباب : وهو الخسار، كما قالوا أحمق خاسر دابر دامر، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة تيب .

(4) قراب : غمد السيف والسكين، ينظر : م.ن، مادة قرب .

(5) الديوان، ص : 10 .

فَتَى لَمْ تُسَافِرْ عَنْهُ آمَالٌ أَمَلٍ وَكَانَ لَهَا إِلَّا إِلَيْهِ إِيَابُ

وَلَا ظَمَى الْعِلْمَ الْمُضَيِّعُ أَهْلُهُ فَسَاعَ لَهُ إِلَّا لَدَيْهِ شَرَابُ

لَهُ هِمَمٌ فِي النَّبَاسِ وَالْجُودِ وَالنَّدَى لَهَا فَوْقَ أَثْبَاجٍ<sup>(1)</sup> النُّجُومِ قَبَابُ

وَأَقْسِمُ لَوْلَا مَالُهُ مِنْ مَائِرٍ لِأَصْبَحَ رِبْعَ الْمَجْدِ وَهُوَ يَبَابُ<sup>(2)</sup>

وفي آخر هذه القصيدة يقدم الشاعر أبياته هذه هدية للممدوح، ويتمنى أن تنال إعجابه ورضاه، فيقول<sup>(3)</sup> :

إِلَيْكَ أَبْيَاتًا مِنَ الشُّعْرِ قُلْتَهَا بُوْدِي لَوْ أَنِّي لَهْنٌ كِتَابُ

فَإِنْ تَتَقَبَّلَهَا فَتِلْكَ مَطِيَّتِي فَيَا مَنْ رَأَى خَطْبًا تَنَاهَ خَطَابُ

وينتقل الشاعر من مدح ابن الحضرمي إلى مدح قومه بني الحضرمي : وهم قوم محمد بن عيسى فيشير بذكاء ولطف إلى أصول ممدوحه العريقة ذات الأمجاد التليدة، فهو يمت إلى المجد بأقوى سبب، فالأصل ماجد والفرع يمتلك الهمة والإرادة ويسلك السبيل الصحيح لبناء مجد جديد يضاف إلى أمجاده التليدة .

وظاهرة المدح بالأصل العريق والحسب الرفيع قديمة في الشعر العربي، قال حسان بن ثابت في مدح العساسنة<sup>(4)</sup> :

بِيضُ الْوَجُوهِ كَرِيمَةً أَحْسَابُهُمْ شَمُّ الْأَثُوفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ

ويؤكد الأعمى التطيلي على الأصل العريق والحسب الرفيع لممدوحه محمد بن عيسى الحضرمي فيقول متغنيا(5) :

- (1) أُنْبَاجٌ : كل شيء معظمه ووسطه وأعلىه، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة بُج .  
 (2) بِيَابٌ : الخالي لا شيء فيه، ينظر : م.ن، مادة بيب .  
 (3) الديوان، ص : 11 .  
 (4) حسان بن ثابت، الديوان، تح : عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس، بيروت، لبنان، 1996، ص : 366 .  
 (5) الديوان، ص : 53 .

عَنِينَا بِآلِ الْحَضْرَمِيِّ وَإِنَّمَا عَنِينَا بِآثَارِ السَّحَابِ الْمَوَاطِرِ  
 بِكُلِّ فَتَى كَالسَّيْفِ إِلَّا ارْتِيَاخَهُ لَطُوعَةَ شَاكٍ أَوْ نِعْمَةَ شَاكِرِ  
 كَرِيمِ الْمَسَاعِي هَزَّ عِظْفِي عِظْفُهُ(1) إِلَى أَثَرٍ مِنْ مَجْدِهِ وَمَآثِرِ  
 بُنَى شَادَهَا عَيْسَى وَشَادَ مُحَمَّدٌ فَيَا فَلَكُ(2) أَمْسِكْهَا بِفَلَكَ الْمَفَاخِرِ

ولا يسأم الشاعر من الاستغراق في المبالغات الشعرية، فيصور جود الممدوح في صورة جميلة، فهو سحاب وبدر يرتجي منه دائما الكرم والسّخاء الذي توارثه عن أجداده إذ يقول(3) :

وَأَنْتَ الْعَمَامُ الْجُودُ يُرْجَى وَيُنْتَقَى عَلَى بَدْرِ مِنْ صَوْبِهِ وَبَوَادِرُ  
 مَكَارِمُ تَنْدَى أَوْ مَكَارِمُ تَلْتَضِي تَوَارَثُوهَا كَابِرًا بَعْدَ كَابِرِ

ويواصل مدحه لابن الحضرمي في قصيدة أخرى؛ إذ يصفه بأنه رفيع الشأن، عالي القدر، فهو دائما في سمو وعلو كالبدر فائق الكمال والجمال، فيقول(4) :

مُحَمَّدُ يَا ابْنَ عَيْسَى ثُمَّ حَسْبِي مَكَانَكَ مِنْ دُعَائِي وَابْتِهَالِي  
 وَيَا ابْنَ الْحَضْرِ رَمِيَّ وَكُنْتَ تَسْمُو لِيَتَّخِذُوا مِنْ عَلَاهُ عَلَى مِثَالِ  
 وَيَا كَافِيَ الْكُفَاةِ، وَلَوْ بِحُكْمِي وَقَدْرُكَ قُلْتُ : يَا مَوْلَى الْمَوَالِي

وفي قصيدة موالية يعبر الأعمى التطيلي عن شدة حبه وشغفه بالمدوح، فهو حتى وإن قلت زيارته له فذلك ليس عن عجز أو ملل إنما ليزداد حظوة لدى المدوح باشتياقه له، والشاعر دائم الشكر لأنعم المدوح التي لطالما غمرتته وهونت عليه خطوب الزمان؛ إذ يقول (5) :

لَا تَحْسَبُونِي وَإِنِ أَلَمْتُ عَنْ عُفْرِ (6) بِمُضْمِرٍ لَكُمْ هَجْرًا وَلَا مَلًّا  
أَحْبَبُكُمْ وَأَوَالِي شُكْرٍ أَنْعَمَكُمْ وَأَرْتَجِيكُمْ وَلَا أَبْغِي بِكُمْ بَدَلًا  
وَأَسْتَدِيمُ جَمِيلَ الصَّنْعِ عِنْدَكُمْ وَلَا أَبَالِي أَجَارَ الدَّهْرِ أَمْ عَدَلًا  
وَمَا أَرَانِي بِمُسْتَوْفٍ مَنَاقِبِكُمْ وَلَوْ نَظَّمْتُ لَكُمْ زُهْرَ النُّجُومِ حُلَى

- (1) عطفه : عطفًا كل شيء جانباه، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة عطف .  
(2) فلك : مدار النجوم، وفلك كل شيء مداره ومعظمه، ينظر : م.ن، مادة فلك .  
(3) الديوان، ص : 55 .  
(4) م.ن، ص : 95 .  
(5) م.ن، ص : 117 .  
(6) عفر : الجذب، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة عفر .

ويتغنى الشاعر بجود المدوح، فكرم محمد بن عيسى الحضرمي يحي المخلوقات، وهو إنما يصلح من شأنهم ويدبر أحوالهم ويزيل الغبن عنهم فكانما أحياهم، والمدوح بحر، فعطأوه وفير يبعث الحياة وينعش النفوس ويساعدهم على تخطي أزمات وخطوب الزمن فيقول (1) :

وَأَبْسَطُ لَنَا يَدَكَ الْعُلْيَا نُقْبِلُهَا فَأَيْنَا لَمْ نَرِدْ بَحْرًا وَلَا وَشَلًا (2)  
وَدَعُ بِمَرَاكٍ ضَوْءَ الصُّبْحِ عَنْ كَثْبٍ فَأَيْنَا قَدْ ضَرَبْنَا لَهُ مَثَلًا  
وَطَالِبِ الدَّهْرِ عَنْ إِنْجَازِ مَوْعِدِهِ فَرُبَّمَا سَوَّفَ الحِرْمَانُ أَوْ مَطَلًا  
وَكُنْ لَنَا أَمَلًا حَتَّى نَعِيشَ بِهِ لَا يَعْرِفُ العَيْشَ مَنْ لَا يَعْرِفُ الأَمَلًا  
خُذْ يَا مُحَمَّدُ شُكْرِي عَنْ مَا خَذِهِ أَوْحَتْ إِلَيْهِ العُلَا آيَاتُهَا قِبَلًا

والأعمى التطيلي في معظم قصائده التي مدح فيها محمد بن عيسى الحضرمي لا يخرج عن تلك الصفات القديمة المتعارف عليها والتي ظلت مثل أعلى لكل شاعر يرى في الكرم والسخاء والشجاعة والبطولة وحماية الجار والغيرة على النساء والحفاظ على الأعراض وإشاعة العدل والخير، ما يمدح بها الرجل ويشيد بفضله ويثني عليه، ولذلك لم يتعد المديح هذه الصفات عند الأعمى التطيلي إذ يقول (3) :

يَسْمُو إِلَى العُلْيَا بِكُلِّ جَلَالَةٍ وَالنَّاسُ مِنْ مُسْتَسْلِمٍ وَمُسَلِّمٍ

فَيَطُولُ غَيْرَ مُدَافِعٍ، وَيَقُولُ غَيْبٌ رَ مَرَا جِعٍ، وَيَعُولُ غَيْرَ مُدَمِّمٍ  
جَاوِرُهُ أَقْوَى طَالِبٍ، وَاسْأَلْهُ أَجْدَى يَ وَاهِبٍ، وَامْدَحْهُ أَشْرَفَ ضَيْغَمٍ (4)  
وَالهَجِّ (5) بِهِ مُتَأَخَّرًا مِيْلَادُهُ لَوْلَاهُ كَانَ الْفَضْلُ لِلْمُتَّقِ َدَمٍ

ومن ممدوحيه أعيان المجتمع الأندلسي في عصر المرابطين أبو العباس صاحب الأحباس<sup>(6)</sup>، وله فيه قصيدة يعرف فيها بهذه الشخصية التي كان لها مكانة وصيت في ذلك الوقت .

- (1) الديوان، ص : 118 .  
(2) وشلا : المعوج، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة وشل .  
(3) الديوان، ص : 170 .  
(4) ضيغم : الأسد، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة ضغم .  
(5) الهج : بمعنى ألع به واعتاده، ينظر : م،ن، مادة لهج .  
(6) أبو العباس صاحب الأحباس : لم نعث له عن ترجمة في المصادر التي بين أيدينا، حتى أن إحسان عباس لم يذكر أي ترجمة له في ديوان الأعمى التطيلي .

ويبدأ التطيلي قصيدته بالمديح ومخاطبة الممدوح مباشرة دون اللجوء إلى أي نوع من المقدمات فينعتة بأجل الصفات وأرفعها، فهو صاحب المعالي والمكارم، الذي نل صروف الدهر، وألان الصعاب والشدائد محتذيا بذلك طريق والده، الذي عرف بكرمه وعطائه، واشتهر بقوة بأسه وشجاعته، وعراقة نسبه، وهو كذلك مصدر الرجاء، ومحل الأمل الذي جمع الخصال الحميدة، والشيم النبيلة، التي تشبه الغمام بكثرتها، والشهب بعلوها ورفعتها والجبال بعظمتها وثباتها، يقول<sup>(1)</sup> :

شَيْمٌ بَهَرَتْ بِهَا الْعَمَامَ مَوَاطِرًا وَالشُّهْبَ زَهْرًا وَالْجِبَالَ رَوَاسِي  
حَزْمِيَّةٌ مَا ضَرَّهَا إِنْ لَمْ تَكُنْ قِطْعَ الرِّيَاضِ بِرَمْلَةِ الْمِيعَاسِ (2)  
مَشْهُورَةٌ بَيْنَ الْمَكَارِمِ وَالْعَلَا تَأْسُو بِهَا أَدْوَاءَهَا وَتَوَاسِي

ثم يتحدث الشاعر عن ذاته المعذبة في صراعها مع الحياة؛ إذ لعبت بها صروف الدهر، وتكالبت عليها الشدائد والمصائب، فتركها مهمومة ذليلة، حيث يقول<sup>(3)</sup> :

سَبَقَتْ إِلَيَّ الْحَادِثَاتِ فَأَمْسَكْتُ عَنِّي بِأَيْدِي الدُّلِّ وَالْأَبْلَاسِ (4)  
لَعِبَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ بِي وَبِهَمَّتِي مَنْ بَعْدَ تَجْرِبَتِي لَهَا وَمَرَاسِي

فالشاعر يعتصر ألما وحزنا من قسوة الدهر الذي كبله بالمحن، ويبيكي على حاله التي عصفت بها الأيام، وغيرتها الحادثات، فجعلتها ذليلة بانسة، وهو يأمل أن يجد لدى ممدوحه أبي العباس ما يعيد إلى نفسه التوازن والاستقرار، فيناديه قائلا<sup>(5)</sup> :

إِيهِ أَبَا الْعَبَّاسِ دَعْوَةَ أَمَلٍ عَنْ صِدْقِ تَقْلِيدٍ وَحُسْنِ قِيَاسِي  
أَدْعُوكَ بَيْنَ صُعُودِهَا وَصُبُوبِهَا كَالْعَشْقِ بَيْنَ الشَّيْبِ وَالْإِفْلَاسِ (6)  
أَدْلِي بِمَجْدِكَ أَوْ أُدِلُّ فَإِنَّمَا أَضَعُ الْحَنِيئَةَ فِي يَدِ الْقَوَاسِ

- (1) الديوان، ص : 75 .  
(2) الميعاس : المكان الذي فيه رمل، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة وعس .  
(3) الديوان، ص : 75 .  
(4) الأبلّاس : الحيرة، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة بلس .  
(5) الديوان، ص : 75، 76 .  
(6) الإفلاس : صار مفلساً كأنما صارت دراهمه فلوساً وزيوفاً، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة فلس .

ويستغل التطيلي مدحته للإشادة بشعره، وبمقدرته على النظم، وكأنه يحاول بذلك تأكيد ذاته بعد أن شعر بالذل والهوان بسبب وطأة الزمن عليه، فتزعزعت ثقته بنفسه، واختلّ توازنه، وعندما اتصل بأبي العباس راح يعيد لنفسه توازنها واستقرارها، يقول (1) :

شِعْرِي وَجُودُكَ يَا أَبَا الْعَبَّاسِ مَثَلَانِ قَدْ سَارَا بِنَا فِي النَّاسِ  
وَأَزْفُ مِنْ شِعْرِي إِلَيْكَ عَقِيلَةٌ (2) أَحْظَيْتُهَا مِنْ حَلِيَّةٍ وَلِبَاسِ  
دَهَبَتْ بِحُسْنِ الْوَرْدِ إِلَّا أَنَّهَا قَامَتْ عَلَاكَ لَهَا بِعُمْرِ الْآسِ (3)

وبهذا يثبت الأعمى التطيلي مدى قدرة الممدوح على إعادة الثقة في كل من يلتجأ إليه ويطلب عونه ومساعدته .

### 3- المديح الديني \*

لقد قامت دولة المرابطين على أساس ديني، يقوم على الجهاد ونشر الدعوة الإسلامية، لذلك نلاحظ بروز طبقة القضاة والفقهاء، فلقد أصبح للقاضي والفقهاء سلطة واسعة، وحرية إدارية كبيرة في ظل الدولة الجديدة، وبلغوا من « المكانة لدى السلطة، ألا بيت في أمر صغير أو كبير من أمور الدولة إلا بمشورتهم، وبعد أخذ رأيهم » (4)، وهذا يوضح لنا السر في تحول الأعمى التطيلي وغيره من شعراء العصر المرابطي، عن مدح الأمراء والحكام في الدولة واتجاهه نحو مدح الفقهاء والقضاة، فالأمر -إذن- مرده إلى أن « أولئك هم أصحاب النفوذ الواسع في الدولة، ولا وجود للشاعر إن لم يرتبط كيانه بكيانهم، يومئذ اشتدت الصلة بين الشعر والتكسب، واستوى الشاعر والوشاح والزجال في هذا » (5) .

- (1) الديوان، ص : 74 .
- (2) عقيلة : الدرّة في صدفتها وعقائل الإنسان كرائم ماله، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة عقل .
- (3) الأس : الدهر، ينظر : م.ن، مادة أسس .
- (\*) نقصد بالمديح الديني - هنا - مديح رجال الدين في الدولة المرابطية من قضاة وفقهاء، ولا نقصد به مديح الله عز وجل ومديح الرسول صلى الله عليه وسلم .
- (4) محمد مجيد السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين، ص : 44 .
- (5) مقدمة ديوان الأعمى التطيلي، ص، ص .

ولعلّ هذه السلطة القوية، وهذا النفوذ المتسلط للقضاة والفقهاء راجع إلى أنهم يقدمون لكل حادث فتوى، ولكل جريمة مبرر، وهم في خدمة الأقوى دائماً، والشعراء يتغنون بمن يدفع أكثر، ولمن يقدم رفاهية أعظم<sup>(1)</sup> .

#### أ - مديح القضاة :

ومن الشخصيات التي حظيت بمدح شعراء الأندلس ونالت إعجابهم واهتمامهم لما كانت تتمتع به من رصيد شعبي كبير وتقدير عظيم هو ابن حمدين<sup>(2)</sup>، الذي كان يمثل القضاء في مدينة قرطبة، وهو منصب خطير في حياتهم العامة، يطاول سلطة الأمير والحاكم نفسه، وابن حمدين إلى جانب ذلك متصف بالعلم والأدب والهمة والشجاعة<sup>(3)</sup> .

والقضاة يمدحون بما يناسب العدل والإنصاف وتقريب البعيد في الحق وتباعد القريب، والأخذ للضعيف من القوي، والمساواة بين الفقير والغني<sup>(4)</sup>، والأعمى التطيلي في مدح ابن حمدين لم يخرج عن المنهج التقليدي؛ إذ مدحه في سبع قصائد<sup>(5)</sup>، تغنى فيها بصفات النجدة والشجاعة والعدل والكرم وغيرها من الفضائل الأخرى المتعارف عليها في هذا المجال .

وتبدأ إحدى القصائد التي قالها الأعمى التطيلي في مدح ابن حمدين بمقدمة غزلية، استرسل فيها وصف لواجع الحب وما يعانيه العاشق جرّاء الفراق والنوى فيقول<sup>(6)</sup> :

- (1) الطاهر أحمد مكي، دراسات في الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، مصر، ط1، 1980، ص : 59 .
- (2) ابن حمدين : هو أبو القاسم أحمد بن محمد بن عبد العزيز ابن حمدين : قاضي الجماعة بقرطبة أخذ عن أبيه، وتفقه عليه وتقلّد القضاء مرتين، وكان نافذاً في أحكامه، جزلاً في أفعاله، وهو من بيت علم ودين وجمالة وفضل، وتوفي قاضياً يوم الأربعاء لثمان بقين من ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، وصلى عليه ابنه أبو عبد الله .
- ينظر : ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ص : 162 .
- (3) محمد مجيد السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، ص : 85 .
- (4) ابن رشيق، العمدة، ج2، ص : 153 .

- (5) الديوان، ص : 4، 85، 135، 161، 172، 206، 237. ويرى محمد عويد الطربولي في دراسته أن الأعمى التطيلي مدح ابن حمدين في ست قصائد . ينظر: محمد عويد الطربولي، الأعمى التطيلي شاعر عصر المرابطين، ص 35 .  
(6) الديوان، ص : 85 .

أَسْلِمِي مُفْلَتْنِيكَ قَبْلَ الْفِرَاقِ فِي الَّذِي جَرَّتَا عَلَى الْعُشَاقِ  
قَبْلَ أَنْ يُطْلَعَ الْوَدَاعُ بُدُورًا يَقْتَضِيهَا السَّرَارُ<sup>(1)</sup> قَبْلَ الْمُحَاقِ<sup>(2)</sup>  
قَبْلَ أَنْ تُصْغِيَ الْقُلُوبُ لِدَاعِيِ الْـ بَيْنِ حَتَّى تَكُونَ فَوْقَ التَّرَاقِي

ثم ينتقل بعدها إلى الحديث عن الزمان يشكوه ويتحسر منه، ممهدا للدخول إلى مديح ابن حمدين فيقول<sup>(3)</sup> :

وَقَضَى لِي عَلَى الزَّمَانِ فَلَمْ يَسِدْ مَخَ بَوْصَلٍ وَلَا قَضَى بِفِرَاقِ  
حَسَدْتَنِي صُرُوفُهُ هِمًّا زَعَزَعَ عَنْ زَهْرِ النُّجُومِ فِي الْآفَاقِ  
وَهُمُومٌ لَيْسَ الرَّدَى بِكَفِيلٍ بِأَنْبِعَاتِ لَهَا وَلَا إِطْلَاقِ

ثم يتخلص إلى المدح فيصف ممدوحه بأنه رجل قوي شجاع ذا عزيمة ونجدة واندفاع وإقدام واقتحام للأهوال والشدائد، وهو إلى جانب هذا مستبد بالمجد لا يقبل شريك له، جواد كريم ومضمون عطائه وإحسانه فيقول<sup>(4)</sup> :

وَمَكَانِي مِنْ ابْنِ حَمْدِينَ أَرْقَا نِي مِنَ الْمَجْدِ فَوْقَ سَبْعِ طِبَاقِ  
الْمُعَلَى مِنَ الْقِدَاحِ ذُو الْأَثْرِ الْمُحَلَّى بَيْنَ الْمَوَاضِي الرَّقَاقِ  
وَقَرِيحِ الْأَيَّامِ ذُو نَجْدَةٍ تَمْضِي وَيَ وَشَمْسُ النَّهَارِ فِي الْإِشْرَاقِ  
مُسْتَبِدٌّ بِالْمَجْدِ هَشٌّ إِلَى الْجُودِ دِ مُطِيقٌ لِلْأَمْرِ غَيْرَ مُطَاقِ  
دَرَبٌ بِالْإِحْسَانِ مُثْرٌ مِنَ الْحَسَدِ نَى أَقَامَ الْعَلَا عَلَى كُلِّ سَاقِ

ولقد حكم القضاة وفق الأحكام المقتضية بالحق المعتمدة على الدليل الواضح والبرهان الملموس، وبهذه الأدلة سطع العدل وارتفعت رايته في الأندلس<sup>(5)</sup>، وكان الهدف الأساس والصريح للقاضي ضمان العدل في نطاق نفوذه الشرعي بالدفاع عن المظلومين والضعفاء الذين يلجئون إليه، ويرى الأعمى التطيلي أن ممدوحه ابن حمدين لم يخرج عن هذا المنحى إذ يصفه فيقول<sup>(6)</sup> :

(1) السرار : الليلة التي يستسر فيها القمر، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة سرر .  
(2) المحاق : أن يستسر القمر ليلتين فلا يرى غدوة ولا عشي، ينظر : م.ن، مادة محق .  
(3) الديوان، ص : 86 .

- (4) م.ن، ص : ن .  
 (5) سلمى سلمان علي، القيم الخلقية في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص : 70 .  
 (6) الديوان، ص : 86، 87 .

وَكَفَيْلٌ بِالْعَدْلِ، وَالْجُودِ مَشْدُو      دُ الْأَوَاحِي، مُمَزَّقُ الْإِمْلَاقِ<sup>(1)</sup>  
 زُهَيْتَ خُطَّةَ الْقَضَاءِ بِهِ زَهْ      وَ حَمَامِ الْغُصُونِ بِالْأَطْوَاقِ  
 وَاسْتَجَارَتْ مِنْ عَدْلِهِ بِجِبَالِ      غَيْرَ مَنكُوثَةٍ وَلَا أَخْلَاقِ  
 شَمَلَتْ فِيهِ الْمُسْلِمِينَ أَيَادِ      هُمْ بِهَا كَالْغُصُونِ فِي الْأُورَاقِ  
 وَأَحَاطَتْ بِالْمُجْرِمِينَ عَوَادِيهِ      إِحَاطَةَ الْعِقْدِ بِالْأَعْنَاقِ

وفي قصيدة أخرى يرى الشاعر بأن ممدوحه رجل دين وبأس وكرم، فكل هذه الأوصاف أثارت إعجاب الأعمى التطيلي وتحولت إلى ترانيم تغني بها، علما أنها نابعة من الثقافة الإسلامية التي نهضت وازدهرت في تلك الفترة؛ إذ يقول<sup>(2)</sup> :

اسْتَوْفِ شَأْوِيكَ<sup>(3)</sup> مِنْ عَزٍّ وَتَمَكِينِ      وَأُدْهَبِ بِحَظِّكَ مِنْ دُنْيَا وَمِنْ دِينِ  
 وَأَفْرُغْ لِشَأْنِيكَ مِنْ بَأْسٍ وَمِنْ كَرَمٍ      بَطْشٌ شَدِيدٌ، وَمَنْ غَيْرَ مَمْنُونِ  
 وَكُلِّ عِدَاكَ لِمَا تَطْوِي صُدُورَهُمْ      يَكْفِيكَ مِنْهُمْ وَيَكْفِيهِمْ وَيَكْفِينِي

وهكذا كانت الأفعال الحميدة مشكورة مذكورة في مغالاة وإسراف تزامم النجم وتخفي نور الشمس، فيقول<sup>(4)</sup> :

وَزَاحِمِ النَّجْمِ فِي غُلْيَا مَطَالِعِهِ      فَلَيْسَ قَدْرُكَ بِالْأَدْنَى أَوْ الدُّونِ  
 وَاجْعَلِ مُحْيَاكَ لِي عَيْدًا أُسِرُّ بِهِ      فَإِنْ فَعَلْتَ فَمَا حَظِّي بِمَغْبُونِ

إنه خير من اجتمعت فيه الفضائل من الرجال فهو الحازم، العازم، الساعي الذي لا يهتك له سرا، فالنصر مضمون والسعي ميمون، والصعب يسلس، والبعيد يقترب، والآمال تتحقق وهذا كله بفضل رجل جذوره من طينة طيبة كريمة ماجدة، فقد ورث الأمجاد أبا عن جد، يقول الأعمى التطيلي<sup>(5)</sup> :

(1) الإملاق : الإنفاق، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة ملق .  
 (2) الديوان، ص : 206 .  
 (3) شأويك : الغاية والأمد، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة شأو .  
 (4) الديوان، ص : 206 .  
 (5) م.ن، ص، 207 .

وَأَرْتَحِ إِلَى الْحَمْدِ مِنْ قُرْبٍ وَمِنْ بُعْدٍ      فَإِنَّهُ خُلِقَ مِنْ آلِ حَمْدَيْنِ  
 الضَّامِنِينَ لِمَا قَالُوا إِذَا هَرَفْتَ (1)      بَعْضُ الرَّجَالِ بِنُكْرٍ غَيْرِ مَضْمُونِ  
 وَالْحَاكِمِينَ بِمَا شَاءُوا وَإِذَا غُمَزْتَ      بَعْضُ الرَّجَالِ بِمَرْدُودٍ وَمَوْهُونِ  
 أَقْمَارُ حُسْنٍ وَإِحْسَانٍ، أَسْوَدُ شَرِّى      وَعَائَةٌ، مُزْنٌ تَأْمِيلٍ وَتَأْمِينِ

ثم يهدي إليه القوافي، وهو - كما أسلفنا - تقليد متبع عند الأعمى التطيلي في قصائده المدحية، مشيراً إلى أن ابن حمدين صاحب نقد وبعد نظر؛ إذ يقول (2) :

أَهْدِي إِلَيْكَ نَفِيسَ الْقَوْلِ عَلَقَ عَلَاً      كَالدَّرِ يَنْظُمُهُ، وَالْمِسْكَ يَفْتَقُهُ  
 فَانظُرْ وَقِسْ وَانْتَقِدْ، فَالْتَقِدْ أَنْتَ لَهُ      وَلَيْسَ كَالتَّاجِ لِابْنِ الْمَجْدِ يَخْتَقُهُ

وإلى جانب ابن حمدين تبرز لنا شخصية أخرى اهتم بها كثيراً الأعمى التطيلي، واحتلت حيزاً لا بأس به في ديوانه، وهي شخصية القاضي ابن زهر (3)؛ إذ نجد في الديوان سبع قصائد (4) في مديحه ومديح عائلته « ومعاني مديحه ليست عن معاني ابن حمدين ببعيدة فتكاد تكون هذه القصائد أطراً مشتملة على الأفكار والألفاظ والمعاني نفسها في ممدوحيه كافة » (5) وأبو العلاء بن زهر كان يتمتع بين الأندلسيين بمكانة مرموقة ودعم شعبي كبير فابن عذارى يذكر في كتابه البيان المغرب أن ابن زهر نكب أيام المرابطين وحوارب من قبل ولآتهم وطورد أصدقاؤه ومحبوّه وأعدم اثنان منهم وطيف برأسيهما في أسواق مدينة اشبيلية (6) .

- (1) هرفت : مجاوزة القدر في الثناء والمدح والإطناب حتى كأنه يهدر، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة هرف .  
 (2) الديوان، ص : 239 .  
 (3) ابن زهر : هو أبو العلاء بن عبد الملك ابن زهر، قال ابن دحية فيه أنه كان وزير ذلك الدهر وعظيمه وفيلسوف ذلك العصر وحكيمة وهو من بني إياد أسرة توارثت الطب ونالوا المناصب العليا وأبو العلاء منهم، وتوفي ممتحناً من نغلة بين كتفيه سنة 525 هـ، بمدينة قرطبة .  
 ينظر : ابن سعيد الأندلسي، ربايات المبرزين وغايات المميزين، ص : 372 .  
 (4) الديوان، ص : 48، 56، 59، 81، 105، 196، 234 .  
 (5) محمد عويد الطربولي، الأعمى التطيلي شاعر عصر المرابطين، ص : 36 .  
 (6) محمد مجيد السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، ص : 83 .

ونتيجة لهذا فقد أصبح في نظر الشعراء أيام المرابطين رمزا لتطلعاتهم الوطنية وأملا في بناء أندلس جديدة، وترجمة لعواطف تتأجج في أعماقهم ولواعج تنوهج في أحشائهم، كتبها

ضيم السلطة وقهرها، فليس أمامها سوى أن تنفس عن حبسها بتعظيم رجالها وكبار علمائها، ممن تتوسم فيهم خيرا وأملا<sup>(1)</sup>، وهؤلاء يمثلون الجانب الديني والروحي كونهم يتمسكون بعري الإسلام، ويعتمدونه مرجعا لأحكامهم وآراءهم المختلفة .

والأعمى التطيلي يقول في ابن زهر<sup>(2)</sup> :

مَنْ كَانَ أَسْلَفَ مَا أَسْلَفَتْ مِنْ كَرَمٍ وَنَجْدَةٍ فَبُنُو زُهْرٍ لَهُ سَلَفٌ  
الْعَالِبُونَ عَلَى مَا فَاتَ غَيْرُهُمْ لَا يَسْبِقُونَ إِلَى شَيْءٍ وَإِنْ وَقَفُوا  
وَالْمُؤَثِّرُونَ، عَلَى مَا حَاقَ<sup>(3)</sup>، جَارَهُمْ وَإِنْ تَكَاثَرَتِ الشَّنَانُ وَالشَّنْفُ<sup>(4)</sup>  
قَوْمٌ تَحَامِي الْمَنَايَا الْحُمُرُ دُونَهُمْ إِذَا احْتَبَّوْا وَتَحَامَاهُمْ إِذَا زَحَفُوا  
هُضْبُ الإِطْوَآلَةِ فُرْسَانُ المَقَالَةِ جِنَا البَسَالَةِ لَا عَزْلٌ وَلَا كُشْفُ

وتحدث الأعمى التطيلي عن الشجاعة التي يتصف بها ممدوحه، وأطنب في ذلك، فتحدث عن الجرأة واقتحام الأهوال ومقارعة الخطوب ومنازلة الأبطال، وعن القلب الثابت، والإقدام الرّاشد، والصبر عن المكاره، والتدبير المحكم، فيقول<sup>(5)</sup> :

رُكَّابُ أَهْوَالٍ، فَرِيْعُ حَوَادِثٍ طُلَّابُ أَوْتَارٍ، رَفِيْعَ مَبَانٍ  
رَكِبَ إِصْطِكَآكَ<sup>(6)</sup> المَوْجِ فِي أَمْثَالِهِ مِنْ حِمْلِهِ المْتَدَافِعِ الأَرْكَانِ

إذن، فالأعمى التطيلي يركز على البطولة والشجاعة والإقدام، وهي صفات تمثل نموذج الثائر في رأي التطيلي؛ حيث يجمع بين مديحه لابن زهر ومديح الحاكم، فإذا كان هذا الأخير صاحب الرئاسة والقيادة، فهو الأول، وابن زهر في المرتبة الثانية بعده، مما يدل أن

(1) محمد مجيد السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، ص : 83 .

(2) م.ن، ص : 82، 83 .

(3) حاق : حاق يحيق حيقا وحاقا إذا أحدق به، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة حقق .

(4) الشنف : شدة البغضة، ينظر : م.ن، مادة شنف .

(5) الديوان، ص : 198 .

(6) اصطكاك : الضرب الشديد بالشيء العريض وقيل هو الضرب عامة، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة صكك .

الشاعر صاحب حكمة وذكاء، فقد حاول أن يكسب ود وعطف وندى الممدوحين معا، مدفوعا- دائما- بعاطفة مادية تكسبية، فيقول<sup>(1)</sup> :

وَاطْلُبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِعِزَّةٍ قَعَسَاءَ<sup>(2)</sup> بَيْنَ الأَمْنِ وَالإِيمَانِ

وَتَوَلَّه فِي عَهْدِ كُلِّ سِيَّاسَةٍ      هُوَ أَوْوَلُ فِيهَا وَأَنْتَ الثَّانِي  
وَتَسْنَمَا خُطَطَ الْفَخَارِ وَأَنْتَمَا      أَخَوَانِ أَوْ قَلْبُكُمَا أَخَوَانِ

ونجده في قصيدة أخرى يثني على ممدوحه، ويتقدم له بالنصح ويرجوه أن يجرب الناس بالبصيرة لا بالبصر فقط، فيقول (3) :

وَالنَّاسُ كَالنَّاسِ إِلَّا أَنْ تُجْرَبَهُمْ      وَاللِّبْصِيرَةَ حُكْمٌ لَيْسَ لِلْبَصْرِ  
كَالْأَيْكِ (4) مُشْتَبِهَاتٍ فِي مَنَابِتِهَا      وَإِنَّمَا يَقَعُ التَّفْضِيلُ بِالثَّمْرِ

ثم ينتقل إلى وصف رحلته إلى الممدوح، وكيف أن ناقته رغم صلابتها وشدتها إلا أنها شكت طول الطريق وعناء السفر، ولكنها حاولت دائما التماسك ومواصلة الطريق فلم تعجز أو تضعف، طمعا في الوصول إلى الممدوح، والتقرب منه ونيل عطاياه ورضاه (5) :

- (1) الديوان، ص : 199 .  
(2) قعساء : يقال عزة قعساء أي ثابتة، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة قعس .  
(3) الديوان، ص : 48 .  
(4) الأيك : الشمر الكثير الملتف وقيل هي الغيضة تنبت السدر، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة أيك .  
(5) الديوان، ص : 50، 51 .

أَمَا تَرَى الْعِرْمِسَ (1) الْوَجْنَءَ (2) كَيْفَ شَكَتْ      طُولَ السَّفَارِ فَلَمْ تَعْجِزْ وَلَمْ تَخْرِ  
تَسْرِي وَلَوْ أَنَّ جَوْنَ (3) اللَّيْلِ مَعْرَكَةٌ      مِنَ الرَّدَى كَاشِرًا فِيهَا عَنِ الظُّفْرِ (4)  
بَاتَتْ تَوَجَّي، وَقَدْ لَأَنْتَ مَوَاطِنُهَا      كَأَنَّهَا إِنَّمَا تَخْطُو عَلَى الْإِبْرِ  
مِنْ كُلِّ نَاجِيَةٍ (5) الْأَمَالِ قَدْ فَصَلَتْ      مِنَ الرَّدَى فَحَسِبْنَاهَا مِنَ الْبُكْرِ (6)

تَخْشَى الزَّمَامَ فَتُثْبِتِي جِدَّهَا فَرَقًا كَأَنَّهُ مِنْ تَثْنِي حَيَّةٍ ذَكَرٍ<sup>(7)</sup>

تَجْرِي فَلَمَاءِ سَاقًا عَائِمٍ دَرِبٍ وَلِلرِّيَّاحِ جَنَاحًا طَائِرٍ ذَكَرٍ

ثم ينتقل إلى وصف الممدوح، فيمدحه وقومه، مديحا جميلا مازجا فيه تلك المعاني الدينية التي هي كامنة في نفس الممدوح، مشعة في روحه ووجدانه ويقارن بين قومه وقوم الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ويصرح أنه لولا وجود رسول الله في قبيلة مضر، لكانت إياد - وهي قبيلة الممدوح - أعظم قبيلة لوجود كل أنواع المكارم والفضائل فيها، ولوجود ابن زهر فيها كذلك، فيقول الأعمى التطيلي (8) :

أَمَا إِيَادٌ فَحَازَتْ كُلَّ مَكْرَمَةٍ لَوْلَا مَكَانُ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ مُضَرَ  
وَأَوْقَدُوا وَنُجُومَ اللَّيْلِ قَدْ حَمَدَتْ فِي لُجٍّ<sup>(9)</sup> طَامٍ<sup>(10)</sup> مِنَ الصَّنْبَرِ<sup>(11)</sup> مَعٌ تَكْرٍ  
أَلْقَى الْمَرَّاسِي وَاشْتَدَّتْ غَيَاطُهَا<sup>(12)</sup> عَلَى ذُكَاةٍ فَلَمْ تَطْلُعْ وَلَمْ تَغْرِ  
أَفَادِنِي حُبِّكَ الْإِبْدَاعِ مُكْتَهَلًا وَرُبَّمَا نَفَعَ التَّعْلِيمُ فِي الْكِبَرِ

- (1) العرمس : الناقة الصلبة الشديدة، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة عرمس .
- (2) الوجناء : وهي الناقة تامة الخلق غليظة لحم الوجنة صلبة شديدة، ينظر : م.ن، مادة وجن .
- (3) جون : الأسود، ينظر : م.ن، مادة جون .
- (4) الظفر : أي شيء يشبه الظفر في بياضه وصفائه وكثافته، ينظر : م.ن، مادة ظفر .
- (5) ناجية : ناقة ناجية سريعة تنجو بمن ركبها، ينظر : م.ن، مادة ناجي .
- (6) البكر : إذا كان أول ولد ولدته الناقة فهي بكر، ينظر : م.ن، مادة بكر .
- (7) ذكر : صلب متين، ينظر، م.ن، مادة ذكر .
- (8) الديوان، ص : 51، 52 .
- (9) ليج : ليج البحر حيث لا يدرك قعره، وقيل الماء الكثير الذي يرى طرفاه، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة ليج .
- (10) طام : الماء علا وغمر وكل ما كثر وعلا حتى غلب، ينظر : م.ن، مادة طمم .
- (11) الصنبر : البرد وقيل الريح الباردة في غيم، ينظر، م.ن، مادة صنبر .
- (12) غياطه : غطت السماء وأغلطت أطبق دجنها، ينظر : م.ن، مادة غطل .

وفي قصيدة موالية جمع الشاعر بين شرف الممدوح وجوده، و كلاًها معان مكررة لا تكاد

تخلو منها قصيده من قصائده المدحية .

فممدوحه دائماً عالي القدر، كريم، جواد، شجاع لا يرضى الذل أو الهوان، ومجد الممدوح ذائع منتشر يعرفه الداني والقاصي، ملأ الدنيا وشغل الناس، وإن كان الناس يسعون لبناء أمجادهم بأفعالهم وأقوالهم وأموالهم، فإن ابن زهر يركب إلى المجد ويصبو إليه ليتحقق له الكمال إذ يقول (1) :

ارْكَبْ إِلَى الْمَجْدِ أَنْصَاءَ<sup>(2)</sup> الْأَعَاصِيرِ      وَجُبْ مَعَ السَّعْدِ أَحْشَاءَ الدِّيَاجِيرِ  
وَمُدَّ بِالْجُودِ كَفًّا رُبَّمَا وَسِعَتْ      مُنْكَ الْأَتَامِ وَتَصْرِيْفَ الْمَقَادِيرِ  
وَجَرَّدِ السَّيْفَ مَطْرُورًا<sup>(3)</sup> تَصُولُ بِهِ      يَمِينُ عَزْمِ كَحَدِّ السَّيْفِ مَطْرُورُ

وينتقل إلى مدحه ومدح ابنه (أبا مروان) ويؤكد دائما على نسب ممدوحه فيخصص قصيدة كاملة في مدح بني زهر، فلم يدع صفة نبيلة ولا خلقا حميدا إلا وصفهم به، فقد كانوا كلهم أعيانا علماء رؤساء حكماء وزراء، وقد نالوا المراتب العليا، وتقدموا عند الملوك ونفذت أوامرهم<sup>(4)</sup>.

فيقول الأعمى التطيلي<sup>(5)</sup> :

حَسْبِي مِنَ الْمَالِ أَعْرَاهُمْ وَعَزَّهُمْ      عِلْمٌ تَتِيَهُ بِهِ الْأَقْلَامُ وَالصُّحُفُ  
أَبَ الْوَزِيرِ فَابَتْ كُلُّ عَارِفَةٍ      بِمَا تَرَفُّ ظِلَالُ الْفَخْرِ أَوْ تَرِفُ  
لَا يَطْمَعُ الدَّهْرُ فِي خِدْلَانِ مَنْ نَصَرُوا      وَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْكَارُ مَا عَرَفُوا

(1) الديوان، ص : 56 .

(2) أنصاء : بمعنى السابقون، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة صنا .

(3) مطرورا : سيف مطرور أي صقيل، ينظر : م.ن، مادة طرر .

(4) ابن سعيد الأندلسي، رايات المبرزين وغايات المميزين، ص : 375 .

(5) الديوان، ص : 81 .

## ب - مديح الفقهاء :

وإذا انتقلنا إلى مديح الفقهاء نجد أن الأعمى التطيلي قد أجاد وأبدع في هذا اللون من المديح كون هذه الفئة بلغت مكانة كبيرة لدى السلطة في عهد المرابطين؛ إذ أن حكمهم كان حكم فقهاء<sup>(1)</sup>، إذ لا يتأتى لأمير أن ينتهج سياسة ما إلا بعد مشاورتهم ونيل رضاهم بها، لعلمه بمدى تأثيرهم على الجماهير الشعبية في الرِّفْض أو القبول؛ فمن المعلوم أن الأندلسيين الخواص مثل عامة الشعب مسلمون متمسكون بالدين الإسلامي. وربما كان العوام

– وهم الأغلبية – من فلاحين وحرثيين وبسطاء أكثر تمسكا بالشرعية الإسلامية يعتقدون أن كل ما يحدث في الحياة من صغيرة أو كبيرة أمر محتوم لا مفرّ منه أراد الله تعالى وبالتالي فما أصحاب الحل والعقد إلا منفذون، فلا مجال للتمرد عليهم، ومن هنا تبدو لنا أهمية الفتاوى التي يستسقيها هؤلاء الفقهاء من أصول الدين ويشهد التاريخ أن الكثير منهم لم يكونوا أوفياء أبرياء، فاستعملوا الدين وسيلة لبلوغ أهداف مادية دنيوية فلم يترددوا في الإفتاء بما يرضي الخلفاء والأمراء للحصول على المراتب السامية وما ينجر عنها من نفوذ وسمعة وأموال طائلة، لذلك حاول الشعراء التقرب منهم والتزلف لهم حتى ينالوا عطاياهم ونعمهم التي لا حدود لها، والأعمى التطيلي ليس سوى واحد منهم دفعته الحاجة والعوز والعاهة إلى مدحهم والتكسب منهم .

فمدح أبو العباس أحد بني القاسم<sup>(2)</sup>، وقال فيه قصيدة جميلة، لم يخرج فيها عن المعاني والأفكار وحتى الألفاظ التقليدية لقصائده السابقة .

وشاعرنا في هذه القصيدة يشير إلى المكانة التي احتلها الفقهاء في بلاط الدولة المرابطية فقد تراجع مقام الأدباء والنحويين ورمز لهم بـ " قام زيد" وبرز وارتفع مقام الفقهاء؛ إذ رمز لهم بـ "قام مالك" فيقول<sup>(3)</sup> :

وَيَا قَامَ زَيْدٍ أَعْرِضِي أَوْ تَعَارِضِي      فَقَدْ حَالَ مِنْ دُونِ الْمُنَى قَامَ مَالِكٌ

- (1) أحمد بدر، تاريخ المغرب والأندلس، المطبعة الجديدة، دمشق، 1980، ص : 218 .  
 (2) بنو القاسم : هم المعروفون ببني عشرة، وصفوا بأنهم أرباب السباح وأرباب الأمداح ومن مشهورهم علي بن القاسم بن محمد بن عشرة قاضي سلا في أيام اللاتونيين، فهو من معاصري التطيلي ومن ممدوحيه .  
 ينظر : الديوان، ص : 89 .  
 (3) م.ن، ص : 91 .

والشاعر رغم ثورته ضد هذا الوضع، إلا أنه لا يجد مفرا من مدح هذه الفئة، فهو يتكسب بشعره فيسعى إلى إرضاء ممدوحه مهما كانت صفته ليجزل له العطايا والنعم، وعاهته هي الدافع وراء هذا الذل والمهانة، فينتقل مباشرة إلى وصف الممدوح، فهو رجل رحيب الفكر، صبور على المكاره، والمكارم تحيط به من كل جهة لدرجة أنه يسمو إلى حيث لا تسمو النجوم فهو يفوقها رفعة وعلوا وسناء إذ يقول<sup>(1)</sup> :

سَمَتْ بِأَبِي الْعَبَّاسِ تِلْكَ وَهَذِهِ      إِلَى حَيْثُ لَا تَسْمُو النُّجُومُ السَّوَامِكِ

رَحِيبَ مَجَالِ الْفِكْرِ، وَالْأَمْرُ صَيِّقٌ صَلِيبُ قَنَاةِ الصَّبْرِ، وَالْأَمْرُ نَاهِكِ

ثم يصفه بالشجاعة التي مكنته من المواجهة والتصدّي والانتصار وهذا يزيده دائما علوا وسموا، فهو رجل عادل لا يظلم ويحاول دائما نصر الحق وإعلاء رأيه فيقول (2) :

فَتَى لَمْ يَكُنْ يَوْمًا لِيْنَاهُ مَطْلَبٌ وَلَوْ أَنَّهُ فِي مَسَلِكِ الْبَحْرِ سَالِكٌ  
يُطِلُّ عَلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَقَدْ أَفَكَتْ عَنْهُ الْخُطُوبُ الْأَوَافِكُ  
إِزَاءَ الْعَوَالِي وَهُوَ لَا يَعْدُو الْحَقَّ وَجْهَهُ لَدَيْهِ وَقَدْ رَاعَ (3) الْأَلْدُ (4) الْمَمَاحِكُ (5)  
وَأَنْ تَعْرِفَ الْأَقْوَامَ سَوْرَةَ (6) عَدْلِهِ كَمَا احْتَمَلَتْ نَارَ الْقَيْونِ (7) السَّبَائِكُ  
وَأَنْ يَتَوَقَّى الضَّيْمُ جَانِبَ جَارِهِ كَمَا يَتَوَقَّى سَيْبُ الْبَعْلِ عُدْرَةَ عَارِكِ (8)

ويشير إلى ذلك المركز المرموق الذي تمتع به أبو العباس في ظل دولة المرابطين، حيث كان أمير المؤمنين يحرص على استمالته وتوثيق أواصر العلاقات معه حتى يضمن مساندته له، مما يدعم سلطة المرابطين، وخصوصا في البلاد الأندلسية فيقول (9) :

نَضَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُهْنَدًا (10) لِكُلِّ نَمٍ مِنْهُ وَإِنْ عَزَّ سَافِكُ  
وَتَاهَتْ بِهِ الْأَيَّامُ عُلُقَ مَضْنَةٍ تَنَازَعَهُ أَمْلَاكُهُ وَالْمَمَالِكُ

(1) الديوان، ص: 91.

(2) م.ن، ص : 91، 92 .

(3) راغ : بمعنى حاد، وراغ إلى كذا أي مال إليه سرا وحاد، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة روغ .

(4) الألد : بمعنى تبلد وهو الذي لحقته حيرة، والألد المتحير، ينظر، م.ن، مادة ألد .

(5) المماحك : رجل مباحك إذ كان لجوجا عسير الخلق، ينظر : م.ن، مادة محك .

(6) سورة : نقول سورة السلطان أي سطوته واعتداؤه وسورة المجد أثره وعلامته، ينظر : م.ن، مادة سور .

(7) القيون : القين الحداد وقيل كل صانع قين، ينظر : م.ن، مادة قين .

(8) عارك : المرأة عارك بمعنى حاضت، ينظر : م.ن، مادة عرك .

(9) الديوان، ص : 92 .

(10) مهندا : السيف المطبوع من حديد الهند، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة هند .

ثم ينتقل إلى وصف جود أبي العباس وكرمه، وهذا المدح نابع -دائما- من طمع الأعمى التطيلي في عطايا ممدوحه ونعمه فالفقهاء -عاما- تمتعوا بثناء فاحش في عهد المرابطين؛ إذ احتكروا معظم المناصب العليا في ذلك العصر، ولم ينس الشاعر ذكر ما تمتعت به هذه الشخصية من سيادة ومجد وشرف فيقول (1) :

إِذَا سَمِعْتَ أَدْنَاهُ حَيَّ عَلَى الْعَلَا فَلَا الْجُودُ مَتْرُوكٌ وَلَا الْبَأْسُ تُتَارِكُ  
وَإِنْ عَلِقَتْ كَفَاهُ حَبْلَ سِيَادَةٍ فَلِلَّهِ مَسْمُوكٌ (2) بِهِ الْمَجْدُ سَامِكٌ (3)

الجدير بالملاحظة -من خلال ما تقدّم - يكمن في أن سمات المديح عند الأعمى التطيلي

« في كل معانيه وصوره وأجوائه، لا يأتي بجديد يمكن أن يضاف إلى مديح العرب السابقين والمعاصرين له، فكان يسترشد تلك الأوصاف الكبيرة، والنعوت الفخمة، التي عرفتها مدائح كبار الشعراء، فيعطيها لغته وأسلوبه ويدبجها شعره » (4).

ورغم كون الحياة في مجتمع متحضر كالبيئة الأندلسية تختلف عنها في البيئة الجاهلية من حيث سلوكيات المرء وانفعالاته، وطرائق تفكيره، وتناوله للقيم الاجتماعية الموروثة من ناحية أو من حيث استيعاب قيم إنسانية جديدة أقرها الإسلام من ذي قبل، أو أفرزتها الحضارة والمدنية من ناحية أخرى، إلا أن طبيعة الحياة القاسية للأعمى التطيلي جعلته يعيش متكسبا بشعره ساعيا وراء ممدوحيه من أجل البذل والعطاء، وانطلاقا من رغبة التطيلي في إشباع حاجاته المادية فقد أخذ يتمثل في ممدوحيه كل صفات الكمال في الخلق والخلقة كما يتمثل فيهم كل الخلال التي تتصل بأسباب القوة في مختلف صورها لكونها السبيل الأوحى للحياة وتحصيل الكمال سواء أكان من الناحية السياسية أم الاجتماعية أم الدينية .

(1) الديوان، ص : 92 .

(2) مسموك : مرفوع كالسمك، ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة سمك .

(3) السامك : العالي المرتفع، ينظر : م.ن، مادة سمك .

(4) علي الغريب محمد الشناوي، الصورة الشعرية عند الأعمى التطيلي، ص : 45 .